

الكلمة القرآنية

د. فضل حسن عباس

مقدمة

الحمد لله الذي علّم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم، وكان من رحمته أول ما امتن به على الإنسان بعد خلقه، أن علمه القرآن والبيان. والصلاة والسلام على سيد الفصحاء سيدنا محمد أحسن الناس منطقا، وأبلغهم قولا، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان، أما بعد :

فإن أى دراسة للبيان العربي بعامة، والقرآني بخاصة، لكي تكون جديرة بالتقدير، حرية بالقول، ينبغي لها أن تأخذ الكلمة أساسا ومنطلقا، ذلك لأن الكلمات إنما هي اللبنة الأولى التي يتكون منها البناء البياني الشامخ لذلك لم يكن عجبا أن يوجه الأئمة من اللغويين والمفكرين وعلماء البيان، إلى هذه الكلمة العربية وبخاصة القرآنية، جهودهم للبحث في مدلولها، ونشأتها، وصيغتها من جهة، وفي إفائها بالمعنى من جهة، ومن جهة ثالثة في الفرق بينها وبين ما يشبهها.

وإنى أتقدم بهذا البحث راجيا العون من الله سبحانه، أتحدث فيه عن الكلمة ومنزلتها، وجهود الأئمة، وما يمكن أن يسجل حولها من ملحوظات.

وإنما أثرت الكتابة في هذا الموضوع لخطره، فهو الأساس الأول في فهم كتاب الله تعالى وبيان إعجازه، هذا من جهة. ومن جهة ثانية إنني لم أجد من تتبع هذه القضية تتبعا تاما، وإن كانت هناك جهود مشكورة، لكنها مفرقة هنا وهناك.

وقد جعلته في تمهيد وفصول ثلاثة ، أما التمهيد فقد تكلمت فيه عن منزلة الكلمة بعامة ، والكلمة القرآنية بخاصة ، وعن الجهود المتعددة للعلماء في بحثها ، والافادة منها ، وتكلمت في الفصل الأول عن البواكير المباركة ، وأعني بها الجذور الأولى للفتات البيانية في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم - وصحابته - رضوان الله عليهم ، ثم ما كان بعد ذلك من تطور لهذه الدراسة ، عند أئمتنا الأقدمين ، وما كان لهم من مواقف حيال الكلمة القرآنية .

وخصصت الفصل الثاني لحديثي عن المحدثين .

أما الفصل الثالث والأخير فقد : سجلت فيه بعض الملحوظات التي لا بد منها ، وناقشت فيه بعض الآراء التي تستدعي المناقشة .

والله أسأل أن يجعله خالصاً لوجهه وأن ينفع إنه سميع مجيب ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

تمهيد في منزلة الكلمة

يميز الناس بين الكلام الذي تنشرح له صدورهم ، وبين ما تنقبض منه نفوسهم ، بالطريقة التي يتبعها الكاتب ، والأسلوب الذي يصوغ فيه موضوعه ، الذي يخرج به للناس ، وإذا كان هذا الأسلوب يقوم على دعائم متعددة ، فإن الذي يهمننا - هنا - من هذه الدعائم أولاها وأولاها بالتقدير ، ونعني بها الأصالة ، وأول لبنية في هذه الأصالة «الكلمة» ذلك أن اللفظة الجيدة تدل على المعنى المراد ، ووقعه في المكان المناسب . «والكلمة أصل الدقة في التعبير ، والوضوح في المعنى ، والصدق في الدلالة ، لأن الكلمة إذا تمكنت في موضعها دلت على المعنى كله ، فإذا حشرت حشراً أو قُشرت قسراً ، دلت على بعض المعنى ، أو أُلجأت إلى غيره . وفي اختيار الكلمة الخاصة بالمعنى إبداع ، والكلمة في الجملة كالقطعة في الآلة ، إذا وضعت موضعها على الصورة اللازمة ، والنظام المطلوب - تحركت الآلة ، وإلا ظلت جامدة .

«وللكلمات أرواح» كما قال (موباسان) . فإذا استطعت أن تجد الكلمة التي لا غنى عنها ، ولا عوض منها ، ثم وضعتها في الموضع الذي أعد لها ، وهندس عليها ونفخت فيها الروح التي تعيد لها الحياة ، وترسل عليها الضوء ، ضمنت الدقة والقوة والصدق والطبيعة والوضوح ، وأمنت الترادف والتقريب والاعتساف^(١) . لا عجب إذن أن نجد العرب في عصورهم الأولى يُجهدون أنفسهم في اختيار هذه الكلمات ، والبحث عنها وانتقائها ، مجتدين لها كل ما منحوه من طاقات العقل ، ودفقات الشعور ، وجميل الأحاسيس .

(١) الأستاذ أحمد حسن الزيات (١٣٠٢ - ١٣٨٨ هـ ، ١٨٨٥ - ١٩٦٨ م) ، مقدمة دفاع عن البلاغة ، مطبعة النهضة ١٩٦٧ م .

فلقد كانوا في جاهليتهم، يدركون ما للكلمة من شأن، أو ماتحدثه من أثر سلبي، فيقبلونها، أو يردونها، نتيجة معرفة وذوق.

سمعَ طرفهُ بن العبدِ بيتَ المسيّب بن علسٍ :
وقد أتناسى الهمُّ عندَ أدكارهِ بناجٍ عليهِ الصيعريةِ مكدم
فقال : «استنوقَ الجملُ»، لأن الصيعريةَ : سمةٌ في عنقِ الناقةِ لا البعير^(٢).

ومن ذلك ما يُروى عن حسان حينما أنشدَ :
لنا الجففاتُ الغرُّ يلمعنَ في الضُّحى
وأسيافُنا يقطرنَ من نجدةٍ دماً
فقليلُ لهُ : لوقلتَ : (يسطعنَ في الدجى). «ولوقلتَ : (يجرين) لكانَ أولى^(٣).

فاذا تجاوزنا العصرَ الجاهليَّ وجدنا ذلك واضحاً في العصرِ الاسلاميِّ .
من ذلك : ما روي عن أفصحِ العربِ وأبلغهم سيدنا محمدٍ صلى الله عليه وآله
وسلم - وهو يوجه معلماً، مبنياً لأصحابه - رضوانُ الله عليهم - ولنْ بعدهمُ مكانةُ
الكلمةِ وأصالتها : (لا يَقُلْ أحدُكمُ خَبِثْتُ نَفْسِي، وَلَكِنْ لِيَقُلْ لَقِستُ)^(٤).
وكذلك ما روى عنه، وهو يعلمُ أحدَ صحابته، البراءَ بنَ عازبٍ - رضيَ الله عنه
- أن يقولَ : (أَمَنْتُ بِكِتابِكَ الَّذي أنزلتَ، وَنبيِّكَ الَّذي أرسَلْتَ) فيقول ذلك

(٢) د. أحمد مطلوب، د. حسن البصرة، : البلاغة والتطبيق - الجمهورية العراقية - وزارة التعليم العالي والبحث العلمي - الطبعة الأولى ١٩٨٢م ١٤٠٢ هـ ص ١١.

(٣) الأستاذ مصطفى صادق بن عبد الرزاق بن سعيد بن أحمد بن عبد القادر الرافعي، (١٢٩٨ - ١٣٥٦ هـ)، (١٨٨١ - ١٩٣٧م) عالم بالأدب، شاعر، من كبار الكتاب، أصله من طرابلس الشام، ومولده في : بهيم (بمنزل والد أمه) ووفاته في طنطا (مصر)، أصيب بصمم فكان يكتب له ما يراد مخاطبته به. وشعره نقي الدباجة على جفاف أكثره، ونثره من الطراز الأول - تاريخ آداب العرب - ضبطها وصححها : محمد سعيد العريان - مطبعة الاستقامة بالقاهرة - الطبعة الثالثة ١٣٧٣ هـ - ١٩٥٣م (الاعلام ٢٣٥/٧).

الأعلام : قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء العرب المستعربين والمستشرقين، تأليف خير الدين الزركلي - دار العلم للملايين - الطبعة الرابعة - كانون ٢ سنة ١٩٧٩.

(٤) أخرجه الامام البخاري في صحيحه : ٥١/٨، كتاب الأدب، باب : لا يقل خبثت نفسي، عن عائشة رضي الله عنها، وأخرجه مسلم في صحيحه ١٧٦٥/٤ - كتاب الالفاظ / باب كراهة قول الانسان : خبثت نفسي ورقمه ٢٢٥٠.

الصحابي : (وَرَسُولَكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ)، وَلَكِنَّ الرَّسُولَ يَقُولُ لَهُ : (وَنَبِيكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ)^(٥)

ومما روى عن سيدنا عمرَ في قوله تعالى : (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) آل عمران : الآية ١١٠، لو شاءَ اللهُ لَقَالَ : أَنْتُمْ، فَكُنَّا كُلُّنَا، وَلَكِنْ قَالَ : كُنْتُمْ فِي خَاصَّةِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ - صلى الله عليه وسلم - وَمِنْ صَنَعَ مِثْلَ صَنِيْعِهِمْ، كَانُوا خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ، يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ^(٦).
وفي العصرِ العباسيِّ، كَانَ لِلْكَلِمَةِ مَنْزِلَتُهَا كَذَلِكَ، وَمِمَّا يَرَوَى فِي ذَلِكَ :
أَنْ رَجُلًا أَنْشَدَ ابْنَ هَرَمَةَ بَيْتَهُ :

بِاللَّهِ رَبِّكَ إِنْ دَخَلْتَ فَقُلْ لَهَا : هَذَا ابْنُ هَرَمَةَ قَائِمًا بِالْبَابِ .
فَقَالَ لِلرَّجُلِ : مَا كَذَا قُلْتَ أَكُنْتَ أَتَصَدِّقُ (أَسْأَلُ) ؟ ! قَالَ : فَمَاذَا ؟ قَالَ : وَاقِفًا
ثُمَّ قَالَ : لَيْتَكَ عَلِمْتَ مَا بَيْنَ هَٰذَيْنِ مِنْ قَدْرِ اللَّفْظِ وَالْمَعْنَى^(٧).

وَالْمَتَّبِعُ لِآدَابِ الْعَرَبِ، وَمَسَاجِلَتِهِمْ فِي أَسْوَاقِهِمْ يَجِدُ كَثِيرًا مِنْ ذَلِكَ. وَالْحَقُّ :
أَنَّ الذَّوْقَ السَّلِيمَ يَجِدُ فَرْقًا شَاسِعًا بَيْنَ الْكَلِمَةِ الْجَيِّدَةِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْكَلِمَاتِ الْمَمْجُوجَةِ،
وَجَمِيلٌ أَنْ نَقْلَ هُنَا كَلِمَةَ ابْنِ الْأَثِيرِ قَالَ : وَمَنْ بَلَغَ جَهْلُهُ إِلَى أَنْ لَا يَفْرُقَ بَيْنَ لَفْظَةِ
(الْغَصَنِ) وَلَفْظَةِ (الْعَسَلُوجِ) وَبَيْنَ لَفْظَةِ (الْمَدَامَةِ) وَلَفْظَةِ (الْأَسَدِ) وَلَفْظَةِ (الْفِدْوَكْسِ)، فَلَا يَنْبَغِي أَنْ
يَخَاطَبَ، وَلَا يَجَاوِبَ بِجَوَابٍ، بَلْ يُتْرَكُ وَشَأْنُهُ، كَمَا قِيلَ : اتْرَكُوا الْجَاهِلَ بِجَهْلِهِ، وَلَوْ
أَلْقَى الْحَجَرَ فِي رَحْلِهِ، وَمَا مِثَالُهُ فِي هَذَا الْمَقَامِ إِلَّا كَمَنْ يَسْوَى بَيْنَ صُورَةِ زَنْجِيَّةٍ سَوْدَاءَ

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه ٨/٨٤، ٨٥ - كتاب الدعوات، باب : اذا بات طاهرة، وأخرجه مسلم في صحيحه ٤/٢٠٨١، باب : ما يقول عند النوم وأخذ المضجع، حديث رقم : ٢٧١٠.

(٦) محمد بن جرير بن يزيد الطبري، أبو جعفر (٢٢٤ - ٣١٠ هـ، ٨٣٩ - ٩٢٣ م) المؤرخ، المفسر، الامام، ولد في آمل / طبرستان، واستوطن بغداد، وتوفي بها، وعرض عليه القضاء فامتنع، والمظلم فأبى، له أخبار الرسل والملوك، وفي تفسيره يدل على علم غزير وتحقيق، وكان مجتهدا في أحكام الدين لا يقلد أحد، بل قلده بعض الناس وعملوا بأقواله وآرائه (الاعلام للزركلي ٥/٦٩) كتاب (جامع البيان في تفسير القرآن) الطبعة - الأولى - المطبعة الكبرى الأميرية ببغداد - مصر المحمية ١٣٢٣ هـ - ج٤ ص ٢٩.

(٧) الدكتور شوقي ضيف - البلاغة تطور وتاريخ - دار المعارف بمصر - الطبعة الثانية - ص ٢٦.

شوهاء الخلق ذات عينٍ حمرةٍ، وشفةٍ غليظةٍ كأنها كلوةٌ، وشعرٍ قططٍ كأنه زبيبةٌ، وبين صورةٍ روميةٍ بيضاءٍ، مشربةٍ بحمرةٍ، ذاتٍ خدٍّ أسيلٍ، وطرفٍ كحيلٍ، وجسمٍ كأنما نُظِمَ من أقاحٍ، وطرةٍ كأنها ليلٌ على صباحٍ^(٨).

وإذا كان هذا في كلام الناس، فهو في كلام الله المتناهي في البلاغة أكثر وضوحاً، وأشدّ ظهوراً، وما أجمل قول الإمام ابن عطية - رحمه الله تعالى - :

«وكتابُ الله تعالى لو نزعَتْ منه لفظةٌ، ثم أديرَ لسانُ العربِ على لفظةٍ غيرها لم يوجدَ، ونحنُ يتبينُ لنا البراعةُ في أكثره، ويخفى علينا وجهُها في مواضعٍ ؛ لقصورنا عن مرتبةِ العربِ - يؤمّن - في سلامةِ الدُّوق، وجودةِ القريحةِ»^(٩).

وما قاله ابن عطية، كلام حري بالتقدير، جدير بالدراسة، ذلك أن المفردات لها خصائص وميزات وهي :

جمالٌ وقِيعها، واتساقها الكامل مع المعنى، واتساع دلالتها لما لا تتسع له عادةً دلالات الكلمات الأخرى.

فالمفردات القرآنية إذن مفرداتٌ مختارةٌ متقاةٌ، ولا أدل على ذلك من أننا حين ننظرُ في المعاجم اللغوية نجدُها زاخرةً بالألفاظ الكثيرة، فالقاموس المحيطُ : يشتمل على أربعين ألفَ مادةٍ، بينما يشتمل لسانُ العرب : على ستين ألفاً، ولكل مادةٍ، اشتقاقاتها الكثيرة المتعددة، وهي من حيث الفصاحة والخفة ليست سواءً أولاً، وقد تدارُ الكلمات الكثيرة على معنى واحد ثانياً. أما كتابُ الله فيخصُ كل لفظٍ بمعنى لا يتعداه.

(٨) نصر الله بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري، أبو الفتح، ضياء الدين المعروف بـ (ابن الأثير) الكتاب (٥٥٨ - ٦٣٧ هـ، ١١٦٣ - ١٢٣٩ م) وزير من العلماء الكتاب المترسلين، ولد في جزيرة ابن عمر، تعلم بالموصل واتصل بخدمة صلاح الدين الأيوبي، ومات في بغداد. (الأعلام ٣١/٨) - المثل السائر - طبعة الباي الحلبي سنة ١٩٣٩ م ج ٥ ص ١٤٩.

(٩) نعيم الحمصي - فكرة إعجاز القرآن منذ البعثة النبوية حتى عصرنا الحاضر مع نقد وتعليق - قدم له الأستاذ محمد بهجة البيطار - مؤسسة الرسالة - بيروت - الطبعة الثانية - ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٠ م - ص ٩٥ والامام الحافظ جلال الدين السيوطي ولد ليلة الأحد في مستهل رجب سنة ٨٤٩ هـ وكان متبحراً في سبعة علوم : التفسير، والحديث، والفقه، والنحو، والمعاني، والبدیع، والبيان، وكان إلى جانب علمه عفيفاً كريماً صالحاً تقياً رشيداً، لا يمد يده إلى سلطان، توفي في سحر يوم الجمعة ١٩ من جمادي الأولى سنة ٩١١ - الاتقان في علوم القرآن شركة مكتبة ومطبعة الباي الحلبي - القاهرة - مصر - الطبعة الثالثة سنة ١٣٧٠ هـ - ١٩٥١ م.

ومن هنا كانت مفردات القرآن الكريم قليلة - نسبياً - إذا قيسَتْ بتلك المفردات التي ذكرتها المعاجم، فأكثر ألفاظ القرآن تنتمي إلى أصولٍ ثلاثية^(١٠)، وقليلٌ من هذه الألفاظ ينتمي إلى أصلٍ غير ثلاثيٍّ، ففي القرآن الكريم ألفٌ وستمئة وأربعون (١٦٤٠) أصلاً ثلاثياً، يتفرعُ منها ما يزيدُ على خمسين ألفَ لفظة، وهي تزيدُ على نسبة ثمانٍ وتسعين بالمئة (٩٨٪) من مفردات القرآن^(١١) وغير الثلاثي لا يزيد على ثمانمئة لفظة.

وإنَّ نظرةً يسيرةً في معجمٍ واحدٍ من المعجمين المتقدمين تجعلنا ندرك أن المفردات القرآنية كانت بمثابة فرائدٍ ودُررٍ، إذا قيسَتْ بغيرها من المفردات.

ولقد كانت الدراسات القرآنية بعامة الشغلُ الشاغلُ لعلماء الأمة، فهي خيرُ ميدانٍ يتنافسُ فيه المتنافسون، حيثُ كانت حلقُ العلم في المساجد تجمعُ بينَ المعرفة اللغوية وروايات التفسير المأثور، وما يتصلُ بذلك من روايات الشعر، وأحاديث القصاص، ونقله الأخبار، ولكنَّ حتمية التطور أمر لا بدَّ منه، لذلك تشعبت هذه الدراسات فيما بعد، وانتظمتها شعب ثلاث، كان لكلٍ منها دورٌ في تجلية الدراسات القرآنية.

هذه الشعبُ الثلاث تشمل : جهود المفسرين، واللغويين، وعلماء البيان. أما المفسرون : فكانوا يعتمدون على الرواية المروية عن الرسول - عليه وآله الصلاة والسلام - أو المنقولة عن الصحابة أو التابعين. فما روى عن النبي - صلى الله عليه وسلم - يسمونه مرفوعاً، وما روى عن الصحابة يسمونه موقوفاً، أما ما روى عن التابعي فهو المقطوع، وغاية المفسر أن يبين المعنى القريب للآية القرآنية، وأن يزيل ما يكتنفها من غموضٍ.

أما اللغويون : فكانت غاية جهدهم لا تقفُ عند ما يعنيه المفسرون، فهم يبحثون في الآيات القرآنية من حيث الأفراد والتركيب، وهي أبحاث انتظمتها فيما بعد فروع كثيرة : كمتن اللغة، والصرف، والاشتقاق والاعراب.

(١٠) أي : مادة.

(١١) مجلة الدوحة - قطر - سنة ١٩٧٧ م.

أما علماء البيان : فهم وإن كانت حاجتهم ماسة إلى اللغويين والمفسرين ، إلا أن الزاوية التي كانت تشغلهم وتقهم طويلاً - إنما هي روعة الأسلوب ، وجمال الصورة ، وبراعة اللفظ ، ودقة المعنى ، وهو ما انتظمه فيها بعد ما سمي علوم البلاغة والنقد .

والذي يعيننا من هذا كله الكلمة القرآنية ، فلقد كان من الطبيعي أن تحظى قبل غيرها باعتبارها الأساس واللبنة الأولى - بجهد العلماء وعنايتهم ، وأن يقفوا أمامها ليوضحوا مدلولاتها ، ويكشفوا عما ترشد إليه من معنى أولاً ، وليبينوا صيغتها واشتقاقها ، والفصلة اللغوية التي تنتمي إليها ثانياً ، وليظهروا جمال موقعها وأصالته في موضعها ، وما لها من حلاوة جرس ، وما تحدثه من إرهاف في الحس ثالثاً .

ولئن كانت هذه الجهات جميعاً تبدو لأول وهلة متداخلة لما بينها من وشيجة قرى ، وعظيم صلة ، ولأن بعضها يكمل بعضاً ، إلا أنه كان لكل منها ميدانه ولونه ، ومباحته الخاصة . وبخاصة بعد أن استقرت الدراسات القرآنية ، وأصبح لكل علم شخصيته التي تميزه عن غيره .

كانت الجهة الأولى من الجهات الثلاث ، مهمة المفسرين ، بينما كانت الجهة الثانية وظيفة اللغويين ، أما الثالثة فكانت ميدان علماء البيان ، هؤلاء جميعاً جندوا كل طاقاتهم للكلمة القرآنية ، ورغم ما بذلوه من جهد ، وما لاقوه من جهد ، وما أولوها من عناية مشكورين ، فستظل الكلمة القرآنية شمس هداية ، يُشع منها النور دون أن تفقد من جوهرها ماتفقدته الشمس كل يوم . وسنخصص هذا البحث لأثر الكلمة القرآنية في الدراسات البيانية وجهود البيانيين .

الفصل الأول

جهود علماء البيان الأقدمين

وإذا كانت هذه عناية اللغويين ودراساتهم، فمن البدهي أن تكون دراسة علماء البيان أكثر دقة، وأوسع دائرة، لأنهم لم يكونوا ليبحثوا عن أصل الكلمة، فحسب إنما الذي كانوا يعنونه أكثر من هذا، فهم يقفون أمام الكلمة من حيث الجرس والتصوير والظلال، ومن حيث الاتساق مع غيرها، ومن حيث الفروق الدقيقة، بينها وبين ما يشبهها من الكلمات : إنهم يعنون إذن من اللفظة القرآنية : بجمال الإيقاع، وجمال التنسيق، ودقة المعنى .

البواكير المباركة :-

أكثر الذين يتحدثون عن الدراسات البيانية، إنما يعنون بالحديث عنها بعد أن استقرت للعلوم قواعدها، وبعد بداية عصر التدوين، فنجدهم يعرضون لهذه الدراسات في نهاية القرن الثاني للهجرة، وبداية القرن الثالث، وهم بذلك يهملون الحلقة الأولى من هذه الدراسات، وهو ماسميناه : البواكير المباركة ونعني به تلك الثروة البيانية التي وجدناها في تفسيرات النبي عليه وآله الصلاة والسلام، ومن بعده تفسيرات حبر الأمة عبد الله بن عباس - رضى الله عنه - وتلاميذه من التابعين، من أمثال، مجاهد، وغيره - رضى الله عنهم - .

ولقد نزل القرآن الكريم بلسان عربي مبين، على قوم صفت قرائتهم، وسلمت فطرتهم اللغوية، وقويت فطنتهم فهم يدركون اللمحة - وإن لطف موضعها - ويغوصون على الدرة من الكلمات - وإن خفي موقعها، فلم يكن تذوقهم لأساليب القرآن وتراكيبه بأقل من تذوقهم لكلماته ومفرداته . ولقد كانت الكلمة من كتاب الله تعالى تتلى عليهم فتروقههم جرسا، وترهفهم حسا، ويختارون لها ما يناسبها من معنى .

وهذا النبي صلى الله عليه وسلم يروون عنه : أنه فسر الرزق بالشكر في قوله تعالى في سورة الواقعة «وَجَعَلُونَ رِزْقَكَ أَنتُكُ تَكْذِبُونَ» آية (٨٢) .

ولنقف عند هذه الكلمات ، ولنستمع لما قاله ابن عباس ومجاهد في تفسيرها .
١ - قال تعالى في سورة الصافات (آية ١٦٢) «فَإِنتُكُ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦٢﴾ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَنِينَ» .

٢ - قال تعالى في سورة الممتحنة (آية ٥) «رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْفِرْلَنَا» .
٣ - وقال تعالى في سورة الأنعام (آية ٢٣) «ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين» .

٤ - وقال تعالى في سورة (ص) (آية ٢٤) «وَلَقَدْ دَاوُدُ إِتْمَا فِتْنَتُهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ» .

فقد فسر مجاهد «فاتنين» في الآية الأولى بمضللين ، وفسر (لا تجعلنا فتنة) في الآية الثانية بمعنى لا تعذبنا بأيديهم ، فيقولون : لو كان هؤلاء على الحق ما أصابهم هذا .
وفسر ابن عباس فتنتهم في الآية الثالثة بمعنى معذرتهم ، كما فسر فتناه في الآية الرابعة بمعنى اختبرناه^(١) .

ومن أراد أن يستزيد فنرشد إلى معجم غريب القرآن ، الذي كتبه الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي - رحمه الله - ولقد كانت هذه الدراسات الأساس الذي مهد لعلماء البيان فيما بعد .

ونحن هنا لا تعيننا الدراسات البانية بعامة ، تلك التي تعني بالنظم وروعته ، وبالصورة وجمالها ، وإنما الذي يعيننا من ذلك الكلمة القرآنية فحسب .

ولا بد أن نبادر هنا بالقول : إن علماء البيان اختلفوا فيما بينهم ، في نظرتهم للكلمة ، وموقفهم منها ، ورغم اتفاقهم على أن الكلمات القرآنية لها مكانتها السامية ولا يمكن أن يقلل من شأنها ، فعلى حين ذهب البعض إلى إحلال الكلمة منزلة سامية ، وإعطائها الحظ الأوفر والنصيب الأوفى في مباحث الإعجاز ومظاهر. ذهب آخرون إلى عكس ذلك تماما ، حيث قصرُوا مظاهر الإعجاز على الكلام المركب ، فهو

النظم كما يسميه عبد القاهر، أو البلاغة كما أطلق عليه الرماني، أو الفصاحة كم ذهب إليه عبد الجبار .

الجاحظ :-

ونحسب أن على رأس الفريق الأول الجاحظ ^(٢) - فمع أن كتابه عن البيان القرآني سماه (نظم القرآن) إلا أننا وجدناه يخص الكلمة القرآنية بعناية، وهو يبين لنا خصائصها وأسرارها، فالقرآن الكريم إنما تختار فيه اللفظة، التي تناسب الموضوع الذي جاءت فيه، فقد يشترك لفظان أو أكثر في معنى، ولكن أحدهما يكون أكثر دقة فيذكر في التنزيل، وهكذا فالفاظ القرآن مختارة منتقاة، وإن كان يظن لأول وهلة بأن بعضها مترادف، إلا أن بينها من دقة الفروق ما يخفي على الكثيرين، حتى من ذوي النظر يقول : «وقد يستخف الناس ألفاظا ويستعملونها، وغيرها أحق بذلك منها، ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجوع إلا في موضوع العقاب، أو في موضع الفقر المدقع، والعجز الظاهر. والناس لا يذكرون السقب، ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة، وكذلك ذكر المطر، لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام، والأمة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وبين ذكر الغيث، ولفظ القرآن الذي عليه نزل : أنه إذا ذكر الأبصار لم يقل الأسماع، وإذا ذكر سبع سماوات، لم يقل الأرضين، ألا ترى أنه لا تجمع الأرض على أرضين، ولا السمع أسماعا، والجاري على أفواه العامة غير ذلك، لا يتفقدون من الألفاظ ما هو أحق بالذكر، وأولى بالاستعمال، وقد زعم بعض القراء أنه لم يرد ذكر النكاح في القرآن إلا في موضع التزويج ^(٣) .

(٢) عمرو بن بحر بن محبوب الكتاني بالولاء الليني أبو عثمان الشهير بالجاحظ (١٦٣ - ٢٥٥ هـ = ٧٨٠ - ٨٦٩ م) كبير ائمة الادب ورئيس الفرقة الجاحظية من المعتزلة مولده ووفاته في البصرة، فلعج في آخر عمره وكان مشوه الخلق، له تصانيف كثيرة منها الحيوان سحر البيان والتاج والبخلاء .

(٣) البيان والتبيين طبعة هارون جـ ص ٢٠ .

ولم تقف براعة الجاحظ ودقة فكره عند هذه القضية في اللفظة القرآنية، بل نجده يطلعنا على لطائف كثيرة لهذه اللفظة.

من هذه اللطائف : أنها قد تذكر اللفظة القرآنية لتسد مسدّ ألفاظ كثيرة، فيستغني عن هذه الألفاظ جميعاً. يقول وقد قال تعالى يسألونك ماذا أحلّ لهم فقال لنبيه «قل : أحلّ لكم الطيبات، وما علمتم من الجوارح مكلّين» (سورة المائدة آية ٤) فاشتق لكل صائد وجارح، وباز وصقر، وعقاب وفهد، وشاهين وزرق وعناق الأرض، من اسم الكلب^(٤).

ومن هذه اللطائف كذلك : أن بعض الكلمات تذكر متصاحبة مع غيرها، لا تكاد تفترق. مثل الصلاة والزكاة، والجوع والخوف، والجنة والنار، والرغبة والرهبة، والمهاجرين والأنصار، والجن والإنس^(٥).

الخطابي :

ومن بعد الجاحظ - المعتزلي - جاء الامام المحدث الفقيه اللغوي، أحد شيوخ السنة وإمامهم في عصره، أبو سليمان الخطابي^(٦) ففي رسالته «بيان إعجاز القرآن» عقد فصولاً خاصة مبينا شأن الكلمة، ومفرقا بين الكلمة وضريعتها، مما يظن أنها متحدتان معنى، راداً على أولئك الذين يريدون النيل من كلمات الكتاب الخالد. قال رحمه الله : (ثم اعلم أن عمود هذه البلاغة التي تجتمع لها هذه الصفات هو : وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام - موضعه الأخص الأشكل به، الذي إذا أبدل مكانه غيره جاء منه : إما : تبدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام، وإما : ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة. (ذلك أن في الكلام ألفاظاً متقاربة في المعاني، يحسب أكثر الناس أنها متساوية في إفادة بيان مراد الخطاب، كالعلم والمعرفة، والحمد والشكر، والبخل

(٤) كتاب الحيوان طبعة هارون ج ٢ ص ١٨٨.

(٥) البيان والبيان طبعة هارون ج ١ ص ٢١.

(٦) حمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي (٣١٩ - ٣٨٨ هـ = ٩٣١ - ٩٩٨ م) فقيه محدث من أهل بستان من بلاد كابل له معان السنين وبيان إعجاز القرآن واصلح غلط المحدثين وله شعر توفي بستان ٣٨٨.

والشح ، أو كالنعت والصفة أو كقولك : اقعد واجلس ، وبلى ونعم ، أو ذلك وذاك ، ومن وعن ، ونحوهما من الأسماء والأفعال ، والحروف والصفات ، مما سذكر تفصيله فيما بعد ، والأمر فيها وفي ترتيبها عند علماء أهل اللغة بخلاف ذلك^(٧) وبعد أن بين - رحمه الله تعالى - الفرق بين هذه الألفاظ أسماء وحروفا وأفعالا ، انتقل إلى فصل آخر يذكر فيه : مطاعن وجهت للكلمات القرآنية ، ويرد عليها بعد قائلا «فان قيل : إنا لانسلم لكم ما ادعيتموه ، من أن العبارات الواقعة في القرآن - إنها وقعت في أفصح وجوه البيان وأحسنها ، لوجود أشياء منها بخلاف هذا الوصف عند أصحاب اللغة ، وأهل المعرفة بها كقوله : (فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ) (يوسف آية ١٧) وإنما يستعمل مثل هذا في فعل السباع ، خصوصا الافتراس يقال : افترسه السبع . هذا هو المختار الفصيح في معناه ، فأما الأكل فهو عام لا يختص به نوع الحيوان دون نوع . وكقوله : (ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ) (يوسف آية ٦٥) قالوا : وما اليسير والعسير من الكيل والاكتيال؟؟ وما وجه اختصاصه به؟؟ وأنت لا تسمع فصيحاً يقول : كلت لزيد كيلاً يسيراً ، إلا أن يعني به أنه يسير العدد والكمية ، وكقوله : **وَأَنْطَلَقَ أَمَلًا مِنْهُمْ أَنْ أَمْتُوا وَأَصْبِرُوا عَلَى الْهِنِكْرِ** (ص آية ٦) والمشي في هذا ليس بأبلغ الكلام ، ولو قيل بدل ذلك : أن امضوا وانطلقوا لكان أبلغ وأحسن . وكقوله : **(هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ)** (الحاقة آية ٢٩) وإنما يستعمل لفظ الهلاك في الأعيان والأشخاص كقوله : هلك زيد ، وهلك مال عمرو ونحوهما ، فأما الأمور التي هي معان ، وليست بأعيان ولا أشخاص - فلا يكادون يستعملونه فيها ، ولو قال قائل : هلك عن فلان علمه ، أو هلك جاهه على معنى ذهب علمه وجاهه ، لكان مستقبحا غير مستحسن . وكقوله سبحانه **(وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ)** (العاديات آية ٨) وأنت لا تسمع فصيحاً يقول : أنا لحب زيد شديد ، وإنما وجه الكلام وصحته أن يقال : أنا شديد الحب لزيد ، وللهمال أو نحوه . وكقوله سبحانه : **(والذين هم للزكاة فاعلون)** (المؤمنون آية ٤) ولا يقول أحد من الناس : فعل زيد الزكاة ، وإنما يقال : زكى الرجل ماله ، وأدى زكاة ماله ، أو نحو ذلك من

(٧) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ط . دار المعارف ص ٢٩ .

الكلام، وكقوله سبحانه : (**إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا**) (مريم آية ٩٦) ومن الذي يقول : جعلت لفلان ودا، وحبا بمعنى أحببته؟ وانها يقول وددته وأحببته، أو بذلت له ودى، أو نحو ذلك من القول وكقوله سبحانه : (**قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفٌ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ**) (النمل آية ٧٢) وانها هو ردفه يردفه من غير إدخال اللام. وكقوله سبحانه : (**وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ**) (الحج آية ٢٥) وكقوله سبحانه : (**أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَغَيِّخْ لَخْلُقْهُنَّ يَفْقَدِرُ**) (الأحقاف آية ٣٣) فأدخل الباء في قوله بإلحاد، وفي قوله بقادر وهي لا موضع لها هاهنا. ولو قيل : ومن يرد فيه إلحادا بظلم، وقيل قادر على ان يحصى الموتى، كان كلاما صحيحا، لا يشكل معناه ولا يشبهه، ولو جاز إدخال الباء في قوله : بقادر لجاز أن يقال : ظننت أن زيدا بخارج، وهذا غير جائز البتة .

ثم كرّر الشيخ - رحمه الله تعالى - يجيب عن هذه الاعتراضات ويردّ على تلك المطاعن وإجابات الامام الخطابي يلحظ فيها القارىء دقة العلم، وهذا إنما يدل على صفاء الذهن، وكمال القرينة، كما يلحظ القارىء كذلك في إجابة الشيخ سعة الاطلاع، والثقافة اللغوية، فتراه يردّ على الشبهة أولا ردّا محكما. يبين فيه دقة اللفظ وملاءمته للمعنى، وهذا منحى بياني، ولا يكتفي بذلك، بل نجده ينتقل إلى اللغة فيستشهد بها جاء من شعر ونثر، وهذا منحى لغوى .

وهكذا يجمع الخطابي بين الاتجاهين، أعني : البياني واللغوي - في فهمه وذبه عن الكلمات القرآنية يقول - رحمه الله - «والجواب أن القول في وجود ألفاظ القرآن وبلاغتها على النعت الذي وصفناه، لا ينكره إلا جاهل أو معاند، وليس الأمر في معاني هذه الآي على ما تأولوه، ولا المراد في أكثر على ما ظنوه وتوهموه :

(١) فأما قوله تعالى «فأكله الذئب» فإن الافتراض معناه في فعل السبع القتل فحسب، وأصل الفرس دقّ العنق. والقوم إنما ادعوا على الذئب : أنه أكله أكلاً وأتى على جميع أجزائه وأعضائه، فلم يترك مفصلاً ولا عظماً، وذلك أنهم خافوا مطالبة أبيهم إياهم بأثر باق منه، يشهد بصحة ماذكروه، فادعوا فيه الأكل ليزيلوا عن أنفسهم المطالبة، والفرس لا يعطي تمام هذا المعنى، فلم يصلح على هذا أن يعبر عنه

إلا بالأكل .

ثم يبين الخطابي : أن لفظ الأكل شائع في الاستعمال للذئب ، وفي غيره من السباع ، حتى الحشرات ، واستدل لذلك بما قيل من شعر ونثر ، فيذكر قول القائل :
فتى ليس لا بن العم كالذئب إن رأى بصاحبه يوما دما فهو آكله

وقول الآخر :

أبا خراشة اما انت ذا نفر فإن قومي لم تأكلهم الضبع

وقول عتبة بن هب وقد دعا عليه النبي عليه وآله الصلاة والسلام - «أكلني السبع» .

وأما قوله سبحانه «ونزداد كيل بعير ، ذلك كيل يسير» فإن معنى الكيل المقرون بذكر البعير - المكيل ، والمصادر توضح موضع الأسماء كقولهم : هذا ردهم ضرب الأمير ، وهذا ثوب نسج اليمن ، أي مضروب الأمير ومنسوج اليمن ، والمعنى : أنا نزداد من الميرة المكيلة إذا صحبنا أخونا ، حمل بعير
« . . . ذلك كيل يسير » أي متيسر لنا ، إذا تسببنا إلى ذلك باستصحاب أحنينا واليسر شائع الاستعمال فيما يسهل من الأمور ، كالعسير فيما يتعذر ، منها ، ولذلك قيل : يُسرَّ الرجل ، إذا نتجت مواشيه ، وكثر أولادها .

قال الشاعر :

يعد الفتى من نفسه كل ليلة أصاب غناها من صديق مسر
وقال آخر :

هما سيدانا يزعمان وإنما يسوداننا إن يسرت غنهما

(٣) وأما قوله تعالى «أن امشوا واصبروا على آهتكم» وقول من زعم أنه لو قيل بدله : امضوا وانطلقوا ، كان ابلغ فليس الأمر على ما زعمه ، بل المشي في هذا المحل أولى وأشبه بالمعنى ، وذلك لأنه إنما قصد به الاستمرار على العادة الجارية ، ولزوم السجية

المعهودة، في غير انزعاج منهم، ولا انتقال عن الأمر الأول. وذلك أشبه بالثبات والصبر المأمور به في قوله «واصبروا على آهتكم» والمعنى كأنهم قالوا : امشوا على هيتكم إلى مهوى أموركم، ولا تعرجوا على قوله، ولا تبالوا به، وفي قوله : امضوا وانطلقوا زيادة انزعاج، ليس في قوله امشوا، والقوم لم يقصدوا ذلك ولم يريدوه، وقيل : بل المشي هاهنا معناه التوفر في العدد، والاجتماع للنصره، دون المشي الذي هو نقل الأقدام. ومن قول العرب : مشى الرجل إذا كثر ولده .

(٤) وأما قوله سبحانه «هلك عني سلطانيه» وزعمهم : أن الهلاك لا يستعمل إلا في تلف الأعيان، فإنهم مازدوا على أن عابوا أفصح الكلام وأبلغه. وقد تكون الاستعارة في بعض المواضع أبلغ من الحقيقة .

ثم بين الخطابي الفرق الدقيق بين الهلاك والذهاب، وذلك أن الذهاب قد يمكن بعده العود، أما الهلاك فليس كذلك، وذلك أنه لا رجعة بعده .

(٥) «وأما قوله سبحانه «وإنه لحب الخير لشديد» فإن الشديد معناها هنا البخيل، ويقال : رجل شديد ومتشدد أي بخيل قال طرفه :

أرى الموت يعتام النفوس ويصطفي عقلية مال الفاحش المتشدد

واللام في قوله «حب الخير» بمعنى لأجل الخير - وهو المال - لبخيل» .

(٦) وأما قوله عز وجل «والذين هم للزكاة فاعلون» وقولهم : إن المستعمل في الزكاة المعروض لها من الألفاظ الأداء، والائتاء والاعطاء ونحوها كقولك : أدى فلان زكاة ماله وآتاها وأعطاهما أو زكى ماله. ولا يقال : فعل فلان الزكاة، ولا يعرف ذلك في كلام أحد. فالجواب : أن هذه العبارات لا تستوي في مراد هذه الآية، وإنما تفسر حصول الاسم فقط، ولا تزيد على أكثر من الاخبار عن أدائها حسب، ومعنى الكلام ومراده : المبالغة في أدائها والمواظبة عليه، حتى يكون ذلك صفة لازمة لهم، فيصير أداء الزكاة فعلا لهم، مضافا إليهم يعرفون به، فهم له فاعلون، وهذا المعنى لا يستفاد على الكمال إلا بهذه العبارة، فهي إذا أولى العبارات وأبلغها في هذا المعنى» .

(٧) وأما قوله عز وجل «سيجعل لهم الرحمن ودا» وإنكارهم قول من يقول : جعلت لفلان ودا بمعنى وددته، فإنهم قد غلطوا في تأويل هذا الكلام، وذهبوا عن المراد فيه، وإنما المعنى : أن الله سيجعل لهم في قلوب المؤمنين - أي يخلق لهم في صدور المؤمنين

- مودة . ويغرس لهم فيها محبة ، كقوله عز وجل «والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا» أي خلق .

(٨) أما قوله سبحانه . «قل عسى أن يكون ردف لكم بعض الذي تستعجلون» (النحل آية ٧٢) فيقول الخطابي : هما لغتان صحيحتان ، يقال : ردفه وردف له .
(٩) أما عن الآيات التي ذكرت فيها زيادة الباء فيرى الخطابي : أن هذا كلام جار على أساليب العرب ، وأن هذه الباء إنما تأتي ليؤكد بها الكلام^(٨) .

وقد نخالف الخطابي - رحمه الله - في هذين الموضعين الآخرين ، ونعد ذلك من باب التضمنين ، فتضمن كلمة ردف معنى القرب ، وتضمن الارادة معنى الهم ، وقد بينت هذا في كتاب الزوائد ، هذه خلاصة ما أجاب به الخطابي - رحمه الله - ولا بد أن أسجل هنا ملحوظتين أرى من الواجب أن أنبه لهما .

الأولى : كان الخطابي في ظني ، أول من فتح للدارسين هذه الأبواب الواسعة في الدراسات القرآنية ، صحيح أن الجاحظ من قبل كان له السبق ، ولكن حتمية التطور وواجب الانصاف ، يجتهدان علينا أن نعترف بهذا الفضل لذويه . لقد كان الرماني معاصرا للخطابي ، وكتب كل منهما في الاعجاز ، إلا أن حديث الرماني كان عن جملة من فنون البلاغة ، وألوان البديع ، التي لا تخص الكلمة القرآنية وحدها ، بل لا تخص الأسلوب القرآني وحده كذلك . إنما أغلبها عام في الكلام العربي كله ، كالمجاز والتشبيه ، والاستعارة ، وغير ذلك من الأنواع العشرة التي قسم البلاغة إليها ، ولكن الخطابي كان - وهو يكتب عن الاعجاز ، - ألصق ما يكون كتابةً بالقرآن الكريم .

والملاحظة الثانية : وهي أن الخطابي لم يحز قصب السبق فحسب ، بل لعله بزّ كثيرا من المتأخرين عنه ، بنظرة الثاقبة الفاحصة ، وطبيعته المنقادة ، وبصيرته النفاذة ، فلقد رأيناه كما مرّ معنا من قبل ، وهو يحدثنا عن عمود البلاغة ، بأنه وضع كل لفظ موضعه وأن هذا اللفظ إن استبدل بغيره ترتب عليه أمران كلّ اسوا من الآخر .

الأمر الأول : هو تغيير المعنى إذا استعملت كلمة مكان كلمة .
الأمر الثاني : هو ذهاب رونق الجملة وروائها ، فلئن كان الأمر الأول يتعلق بجوهر

(٨) بيان إعجاز القرآن ص ٤١ - ٤٥ .

الكلام ومعناه، فإن هذا يتعلق بجماله وحسنه، هذه لمحة حريّة أن يقدرها الباحثون للخطابي .

ولقد رأينا من الذين جاءوا بعده، من يقتصر على الأمر الثاني، فلا يلتفت إلا لرونق الكلمة وخفتها، دون النظر إلى المعنى الدقيق الذي تعطيه كل كلمة، فكلمة أكل من قوله تعالى «فأكله الذئب»، وكلمة «فاعلمون» من قوله سبحانه «والذين هم للزكاة فاعلمون»، لم تذكر لكونها أخف وأقل أحرفا من كلمتي «افترس» و «مؤدون»، إنما لأن المعنى الذي يؤدي بهابن الكلمتين، لا يؤدي بغيرهما، وكلمة هلك فيها من جمال الاستعارة وبلاغتها ما لا تؤديه كلمة أخرى .

أحببت أن أسجل هاتين الملاحظتين، لأني وجدت من الكاتبين من لا يعطي هذا الرجل حقه، سواء من الذين يؤرخون للبلاغة وتطورها، أم من الذين يكتبون عن الاعجاز .

الرماني :-

أما الامام الرماني - هو معاصر للخطابي - فعلي الرغم من أنه سلك مسلكا آخر وهو يكتب عن الاعجاز، فجعل الاستعارة والتجنييس وغيرهما مما كان يعرف بالبديع - جعل ذلك كله من أوجه الاعجاز. إلا أننا نجد أن له إشارات بدیعة تحدث فيها عن الكلمة القرآنية، سواء أذكر ذلك في رسالته، أم نقله عنه العلماء .

فمن الأول نجده وهو يتحدث عن الاستعارة، يفاضل بين الكلمات، فيذكر في قوله تعالى «وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا» بأن حقيقة الأمر عمدنا ولكن الكلمة القرآنية أبلغ «لأنه يدل على أنه عاملهم معاملة القادم من سفر، لأنه من أجل إهماله لهم كمعاملة الغائب عنهم، ثم قدم فرآهم على خلاف ما أمرهم وقال عز وجل (فاصدع بما تؤمن)، والاستعارة أبلغ من الحقيقة، لأن الصدع بالأمر لا بد له من تأثير كتأثير صدع الزجاج، والتبليغ قد يصعب، حتى لا يكون له تأثير فيصير بمنزلة ما لم يقع . . . وقال عز وجل «إنما طغى الماء حملناكم في الجارية»

() ص ٨٦ - ٨٧ ثلاث رسائل في إعجاز القرآن .

حقيقته علا، والاستعارة أبلغ، لأن طغى عمل قاهر، وهو مبالغة في عظم الحال، وقال عز وجل «بريح صرصر عاتية» حقيقته : شديدة، والعتو أبلغ منه، لأن العتو شدة فيها تمرد» *

ومن الثاني - وهو ما نقله عنه العلماء - يقول عند قوله تعالى «حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين» والعليل الذي قد بات مكابدا الآما شديدة تغير حاله عند الصباح، فإذا أصبح مفيقا مسترخيا من تلك الآلام رجي له الخير، وغلب على الظن برؤه، وإفاقته من ذلك المرض، وإذا أصبح كما أمسى تيقن هلاكه، بجريان العادة بهيجان المرض في الليل وسكونه في الصباح، وشبهت حال الأشقياء بالعليل الذي أصبح من الألم على ما أمسى فهو ممن يئس من صلاحه، وعلى هذا تكون لفظة «فأصبحوا» قد أفادت معنى حسنا جليلا، وخرجت عن كونها حشوا غير مفيد.***

الباقلاسي :- (٩)

ثم جاء الباقلاسي، يخصص للكلمة فيما ذكره من وجوه الاعجاز البياني للقرآن الكريم، وقد ذكر لذلك معاني عشرة، يقول رحمه الله في المعنى السابع «إنه قد علم أن تحير الألفاظ للمعاني المتداولة المألوفة، والأسباب الدائرة بين الناس، أسهل وأقرب من تحير الألفاظ لمعان مبتكرة، وأسباب مؤسسة مستحدثه، فإذا برع اللفظ في المعنى

(٩) ولعل ذلك من تفسيره الكبير الذي لا تعرف الا ما حدثنا هو في رسالته عند ذكر التضميم وما تحدث به العلماء عن التفسير إلا مخطوطة للتفسير جزء عم في دار الكتب المصرية.

(١) تدبیر القرآن - ابن أبي الأصبح ص ٢٤٤.

(٢) علي بن عيسى بن علي بن عبد الله أبو الحسن الرماني معتزلى مفسر من كبار النحاة أصله من سامراء ووفاته ببغداد ت (٣٨٤هـ - ٩٩٤م) الاعلام ج ٤ ص ٣١٧.

(٩) أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم المعروف بالباقلاسي أو ابن الباقلاسي (٣٣٨ - ٤٠٣هـ = ٩٥٠ - ١٠١٣م) قاض من كبار علماء الكلام انتهت إليه الرئاسة في مذهب الأشاعرة، ولد في البصرة وسكن في بغداد فتوفي فيها. كان جيد الاستنباط سريع الجواب، وجهه عضد الدولة سفيرا إلى ملك الروم، من كتاب الانصاف في «دقائق الكلام» والمثلل والحل، الاعلام ج ٥ ص ١٧٦.

البارع، كان ألفت وأعجب من أن يوجد اللفظ البارع في المعنى المتداول المبتكر. ثم يزيد الباقلاني هذا المعنى إيضاحاً فيقول : ومعنى ثامن : وهو أن الكلام يتبين فضله ورجحان فصاحته، بأن تذكر منه الكلمة في تضاعيف كلام، أو ما بين شعر، فتأخذها الأسماع، وتتشوق إليها النفوس، ويرى وجه رونقها بادياً عامراً سائراً ما تقرن به، كالدرة التي ترى في سلك من خرز، وكالياقوتة في واسطة العقد . وأنت ترى الكلمة من القرآن يتمثل بها في تضاعيف كلام كثير، وهي غرة جمعه، وواسطة عقده، والمنادي على نفسه بتميزه، وتخصيصه برونقه وجماله، واعتراضه في حسنه ومائه^(١١) .

الراغب الأصفهاني^(١١)

ومن بعد أولئك الأئمة جاء الراغب الأصفهاني، ويظن كثير من الناس أن ما كتبه الراغب مشابه لما كتبه غيره في الغريب، سواء من أولئك الذين سبقوه كأبي عبيدة، وأبي بكر السجستاني، أو من الذين جاءوا بعده كأبي حيان . ولكن من الانصاف أن نبادر بالقول : إن الراغب رحمه الله لم يسم كتابه «غريب القرآن»، وإنما عرف بالمفردات، وأن هذه المفردات لم يتوخ فيها ذكر الغريب فحسب، وإنما ألمّ بمفردات القرآن جميعها، دون أن يقتصر على الغريب وحده، ولكن ما ذكره الرجل، كان بدعاً مما ذكره الكثيرون، فلقد كان الرجل - بحق داركاً للمحة، غواصاً على الفروق الدقيقة بين الكلمات، واختصاص كل كلمة بالموضع الذي ذكرت فيه، حتى لقد أصبح كتابه مرجعاً لا يستغني عنه ذوو الدراسات القرآنية واللغوية . وبخاصة أولئك الذين ليس غرضهم أن يقفوا على المعنى القريب فحسب وإنما أرادوا أن يتضلّعوا من ندير القرآن، فترتوي أفئدتهم .

١١. إعجاز القرآن تحقيق السيد أحمد صقر دار المعارف ١٩٦٣ ص ٤٢ .

أبو القاسم حسين بن محمد بن المفضل المعروف بالراغب الأصفهاني، لم يعرف متى ولد ولا أين تلقى علمه . أحد أئمة أهل السنة، ومن آثاره الأدبية «تفصيل النشاطين وتحصيل السعادتين» و«الذريعة إلى مكارم الشريعة» و«محاضرات الأدباء» والمفردات وكتاب في التفسير لم يكمله ومنه أخذ البيضاوي غالب تحقیقاته ت (٥٠٢ هـ)

وما نظننا بحاجة إلى أن نأتي بأمثلة كثيرة، كما صنعنا من قبل لأن الكتاب كله من هذا الطراز، فهو خاص بالمفردات كما عرفنا - فلينظر القارئ في أي موضع، فسيجد مصداقية ماقلته، لينظر مثلاً في مادة جاء وأتى وفتح والشك والخوف، وأنقل هنا ماذكره في كلمة صبر .

يقول «والصبر الامساك في ضيق، يقال «صبرت الدابة» حبستها بلا علف، «وصبرت فلاناً» خلفته خلفه لا خروج له منها، والصبر: حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع، أو عما يقتضيان حبسها عنه، فالصبر لفظ عام، وربما خولف بين أسمائه بحسب اختلاف مواقعه، فإن كان حبس النفس لمصيبة، سمي صبراً لاغير، ويضاده الجزع، وإن كان في محاربة سمي شجاعة، ويضاده الجبن، وإن كان في نائبة مضجرة سمي ربح الصدر، ويضاده الضجر، وإن كان في إمساك الكلام سمي كتماناً، ويضاده المذل، وقد سمي الله تعالى كل ذلك صبراً، ونبه عليه بقوله (والصابرين في البأساء والضراء - والصابرين على ما أصابهم - والصابرين والصابرات) وسمى الصوم صبراً، لكونه كالنوع له، وقال عليه السلام «صيام شهر الصبر، وثلاثة أيام في كل شيء يذهب وحر الصدر» وقوله «فما أصبرهم على النار» قال أبو عبيدة : إن ذلك لغة بمعنى الجرأة، واحتج بقول أعرابي قال لخصمه : ما أصبرك على الله : وهذا تصور مجاز بصورة حقيقة، لأن ذلك معناه، ما أصبرك على عذاب الله في تقديره، إذا اجتترأت على ارتكاب ذلك، وإلى هذا يعود قول من قال : «مأبقاهم على النار، وقول من قال : ما أعملهم بعمل أهل النار، وذلك أنه قد يوصف بالصبر من لا صبر له الحقيقة، اعتباراً بحال الناظر إليه، واستعمال التعجب في مثله اعتباراً بالخلق لا بالخالق، وقوله تعالى : «**أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا**» (آل عمران ٢٠٠) أي احبسوا أنفسكم على العبادة، وجاهدوا أهواءكم، وقوله تعالى . . واصطبر لعبادته (مريم آية ٩٥) أي تحمل الصبر بجهدك ، وقوله «**أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرَّةَ بِمَا صَبَرُوا**» (الفرقان آية ٧٥) أي بما تحملوا من الصبر في الوصول إلى مرضاة الله ، وقوله «فصبر جميل» (يوسف آية ١٨) معناه الأمر والحث على ذلك، والصبور القادر على الصبر، والصَّبَار يقال إذا

كان فيه ضرب من التكلف والمجاهدة قال « **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ** » (سبأ، آية ١٩٠) ويعبر عن الانتظار بالصبر، لما كان حق الانتظار أن لا ينفك عن الصبر، بل هو نوع من الصبر، قال «**فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ**» (الانسان آية ٢٤) أي انتظر حكمه لك على الكافرين^(١٢) .
ونكتفي بهؤلاء من الفريق الأول .

الجرجاني :-

أما الفريق الثاني الذي لم يعد للكلمة ميزة من حيث الفصاحة والبلاغة، وبالتالي فليس لها في أمر الاعجاز وشأنه دخل؛ فمن أبرزهم الامام الجليل عبد القاهر الجرجاني^(١٣) رحمه الله، حيث يذهب مذهبا آخر، فهو يقرر، بل يكرر ذلك التقرير في كتابه دلائل الاعجاز من أن الكلمة : ليست ذات شأن يذكر، وليس لها شأن في قضية الاعجاز. وبما قاله في هذا الموضوع : هل يتصور أن يكون بين اللفظتين في الدلالة، حتى تكون هذه أدل على معناها الذي وضعت له من صاحبها، على ما هي موسومة به . ثم يقول :- وهل يقع في وهم - وأن تتفاضل الكلمتان المفردتان، من غير أن ينظر إلى مكان تقعان فيه من التأليف والنظم - بأكثر من أن تكون هذه مألوقة مستعملة، وتلك غريبة وحشية، وأن تكون حروف هذه أخف، وامتزاجها أحسن . . . وهل تجد أحداً يقول : هذه اللفظة فصيحة، إلا وهو يعتبر مكانها من النظم، وحسن ملائمة معناها لمعاني جاراتها، وفضل مؤانستها لأخواتها؟، وهل قالوا: لفظة متمكنة ومقبولة، وفي خلافها لفظة قلقة ونابية ومستكرهة، إلا وغرضهم أن يعبروا

(١٢) المفردات في غريب القرآن تحقيق وضبط محمد سيد كيلاني ماجستير من كلية اداب جامعة القاهرة/ مطبعة مصطفى البابي الحلبي / مصر الطبعة الاخيرة ١٣٨١هـ سنة ١٩٦١م ص ٢٧٤، ٢٧٣ .

(١٣) عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني ابوبكر (ت ٤٧١ هـ - ١٠٧٨م) والمصنف أصول البلاغة . كان من أئمة اللغة، من اهل جرجان (بين طبرستان وخرسان) له شعر رقيق من كتبه «اسرار البلاغة» و «دلائل الاعجاز» والتممة والمغنى في شرح الايضاح وإعجاز القرآن «والعمدة» . الخ / الاعلام للزركلي ج ٤ ص ٤٨ .

بالتمكن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك ، من جه معناها : وبالقلق والنبؤ عن سوء التلاؤم ، وأن الأولى لم تلق بالثانية في معناها ، وأن الثانية لم تصلح أن تكون لفقاً للتالية في مؤداها ^(١٤) .

وها هو يتحدث عن الاعجاز والفصاحة والبلاغة ، ويبين أن عجز العرب إنما كان لأمر جديد في القرآن ، لم يعرفوه من قبل ، ولكن ما هو هذا الأمر يا ترى ؟ . إنه لا يمكن أن يكون في الكلمة ، لأن كلمات القرآن معروفة للعرب ، فلا يمكن أن تكون الكلمة معجزة وغير معجزة ، معجزة إن وجدت في القرآن ، غير معجزة إن في تركيب آخر ، ولا يمكن أن تكون كذلك في معنى الكلمة المفردة ، إن معاني القرآن معلومة لديهم كذلك ، ولا يجوز أن تكون في الحركات ، كما لا يجوز أن تكون في القواطع والفواصل .

ويقول عبد القاهر : ثم إن الوصف ، ينبغي أن يكون وصفاً قد تجدد بالقرآن وأمره لم يوجد في غيره ، ولم يعرف قبل نزوله . وإذا كان كذلك ، فقد وجب أن يعلم أنه لا يجوز أن يكون في الكلم المفردة ؛ لأن تقدير كونه فيها يؤدي إلى المحال ، وهو أن تكون الألفاظ المفردة ، التي هي أوضاع اللغة قد حدث في حذاقة حروفها ، وأصدائها أوصاف لم تكن لتكون تلك الأوصاف فيها قبل نزول القرآن ، وتكون قد اختصت في أنفسها بهيئات وصفات يسمعها السامعون عليها إذا كانت متلوة في القرآن ، لا يجدون لها تلك الهيئات والصفات خارج القرآن ، ولا يجوز أن تكون في معاني الكلم المفردة التي هي لها بوضع اللغة ؛ إنه يؤدي إلى أن يكون قد تجدد في معنى الحمد والرب ، ومعنى العالمين والملك ، واليوم والدين ، وهكذا ، وصف لم يكن قبل نزول القرآن . وهذا ما لو كان ههنا شيء أبعد من المحال وأشنع لكان إياه .

ولا يجوز أن يكون هذا الوصف في تركيب الحركات والسكنات ، حتى كأنهم تحدوا إلى أن يأتوا بكلام تكون كلماته على تواليها في زنة كلمات القرآن ، وحتى كأن الذي

(١٤) دلائل الاعجاز في علم المعاني ، صبح أصله الاستاذ الشيخ محمد عبده والاستاذ الشيخ محمد محمود التكري صبحه وعلق حواشيه السيد محمد رشيد رضا منشئ النار الطبعة الخامسة اصدارها دار المنار/ مصر ١٣٧٢ هـ ص ٣٩ .

بان به القرآن من الوصف في سبيل بينونة بحور الشعر بعضها من بعض ، لأنه يخرج إلى ما تعاطاه مسيلمة من الحماسة في :

﴿إنا أعطيناك الجواهر، فصل لربك وجاهر، والطاحنات طحنا﴾^(١٥).

ولقد أجهد عبد القاهر نفسه بل ربما أحدث لبعض قرائه مللا وسآمة، وهو يدور حول هذا المعنى ، بل لقد أصبح ذلك جزءا من نظريته، وهي أنه تقوم على النظم وحده، دون أن يكون للكلمات المفردة شأن في تزيين ذلك النظم. يقول الدكتور محمد مندور^(١٦) «فرع عبد القاهر كل آرائه، وجماعها : مسألان» :

إحدهما : إنكاره لما رآه الجاحظ من أهمية فصاحة الألفاظ، باعتبار تلك الفصاحة صفة في اللفظ ذاته، ثم ثورته على مذهب العسكري الذي يرد جودة الكلام إلى محسنات لفظية تقف عند الشكل.

ثانيتهما : تعليقه جودة الكلام بخصائص في النظم^(١٧).

عبد القاهر إذن : يهمل اختيار اللفظ، كما يهمل الفاصلة، أن يكون لهما في الاعجاز شأن وفي التحدى شأو، والدارس يلمح ذلك من تحليله لبعض النصوص القرآنية، فهو حينما يتكلم عن قوله تعالى «وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي» (هود . . آية ٤٤) يحدثنا عن النظم فحسب، عن نداء الأرض والسماء، وعن بناء الأفعال في الآية الكريمة للمجهول، إلى غير ذلك، مما لا دخل للكلمات فيه، فليس هناك مزية إذن لاختيار هذه الكلمات : ابلعي أقلعي، غيص، استوت، بعدا. لو أنها بدلت بغيرها مع بقاء النظم على حالة، لبقى أمر الاعجاز على ما هو عليه. وعلى هذا المنوال يمكن أن نقول : إن قوله تعالى «ذلك لا ريب فيه» (البقرة آية ٢) الشأن فيه للنظم وحده، وهو مجيء اسم الإشارة، وتعريف الكتاب بالآلف واللام، وتقديم

(١٥) دلائل الاعجاز - للرجحاني ص ٢٩٦، ٢٩٥.

(١٦) محمد مندور (١٣٢٥ - ١٣٨٤هـ) (١٩٠٧ - ١٩٦٥) دكتور حقوقي اديب صحفي ضليع باليونانية والفرنسية والانكليزية، مصري، تولى التدريس بجامعة القاهرة ورأس تحرير بعض الصحف وعمل في المحاماة وحاضر في معهد الدراسات العربية وكان من كبار النقاد وتوفي بالقاهرة.

(١٧) مجلة الثقافة عدد ٢٠٥ ص ٢١٨ / دفاع عن علماء البلاغة.

الريب على الجار والمجرور، وكذلك قوله تعالى «لا فيها غول» (الصافات آية ٤٧) جاءت الروعة فيه من تقديم الجار والمجرور، فلو قيل مثلاً «ذلك القرآن لا شك فيه» ولو قيل مثلاً : لا فيها سكر» ولو قال : إنما يخاف الله من عباده العلماء بدل يخشى، ولو قال «إنما المؤمنون الذي آمنوا بالله ورسوله ثم لم يشكوا» (الحجرات آية ١٥) بدل يرتابوا، لكان ذلك أمراً يختلف عما جاء في الآيات الكريمة، وما نظن الأمر كذلك. بل نعتبر هذا نوعاً من الغلو، من شيخ البلاغة العربية.

إن اختيار الكلمة أمر لا يجوز إغفاله، ولا يصح التغاضي عنه، ولقد أدرك بعض الأقدمين، كعمر بن عبد العزيز - رضى الله عنه - روعة اللفظة، وسر التعبير بها في مثل قوله تعالى «أهلأكم التكاثر حتى زرم المقابر» (التكاثر آية ١) حيث استعملت كلمة زرم دون غيرها، وكذلك لا يجوز التغاضي عن اختيار الفاصلة كذلك، ونحن نعلم أن الفواصل القرآنية ليست مجرد قواطع تحتم بها الآيات؛ وإنما كل فاصلة جاءت مستقرة مكانها، لا يصلح مكانها غيرها، ولا يسد مسدها.

فإن ما ختم بقوله تعالى : يتفكرون؛ يختلف كلية عما ختم بقوله «يعقلون» وكذلك ما ختم بقوله «يسمعون» يختلف تماماً عما ختم بقوله «يبصرون».

لقد حاول عبد القاهر أن يظهر روعة في استعمال الصور البيانية، كالاستعارة والمجاز مع أنها ليست من النظم، وكان يمكنه أن يصنع الصنيع نفسه في اختيار الكلمات والفواصل. يقول الدكتور محمد رجب البيومي في حديثه عن عبد القاهر، وتعليقه على الاسناد وحده دون الكلمات : «وما نقوله في ذلك - أى في اختيار الألفاظ - نقوله في المقاطع والفواصل وإن شئت فانظر مثلاً إلى قول الله عز وجل «ذرني ومن خلقت وحيداً، وجعلت له مالا» مبسوطاً»، وبنين «حاضرين»، ومهدت له تمهيداً ثم يطمع أن «أكثر» «فإنك إذا فعلت ذلك، لم تخرج عن قضية النظم النحوى كما عناء عبد القاهر. ولكنك تغفل أثر المقطع والفاصلة، فتتهبط بالكلام من مستوى إلى مستوى، وذلك ما كان ينبغي أن يلتفت إليه هذا الدارس الحصيف، وما أحرأه أن يدخل

اختيار اللفظ وجمال المقطع في ترتيب النظم بحيلة فكرية ، كما أدخل الاستعارة فيريح^(١٨).

الزخمشري^(١٩) :

وجاء الزخمشري يطبق نظرية عبد القاهر، والذي يقرأ مقدمة تفسير «الكشاف» يدرك ذلك تمام الإدراك، وهو يقرر في مواضع كثيرة من تفسيره كذلك : أن النظم هو عمود الإعجاز وجوهره، وعلى سبيل المثال عند تفسيره لقوله تعالى «أن أقذفه في التابوت فأقذفه في اليم فليلقه اليم بالساحل (طه آية ٣٩) .

فإن قلت : المقذوف في البحر هو التابوت، وكذلك الملقى إلى الساحل ، قلت : ما ضرك لو قلت : المقذوف والملقى هو موسى في جوف التابوت؛ حتى لا تفرق الضمائر فيتنافر عليك النظم؛ الذي هو أم إعجاز القرآن، والقانون الذي وقع عليه التحدى، ومراعاته أهم ما يجب على المفسر^(٢٠).

بل نجده لا يرضى ما علل به البعض لاختيار بعض الكلمات في القرآن، كما يظهر ذلك عند قوله تعالى في سورة آل عمران «قل آمنا بالله وما أنزل علينا (اية ٨٤) حيث اختيرت كلمة (على) بينما اختيرت كلمة (إلى) فيما جاء في سورة البقرة «قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا» (آية ١٣٦) فيرى البعض : أن اختيار كلمة على في آل عمران؛ لأن

(١٨) الدكتور محمد رجب البيومي / خطوات التفسير البياني للقرآن الكريم / السنة الثالثة ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م ص ٢٢٦ .

(١٩) محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الخوارزمي الزخمشري جار الله أبو القاسم (٤٦٧ - ٥٣٨ هـ = ١٠٧٥ - ١١٤٤ م) من أئمة العلم بالدين والتفسير واللغة والأدب، ولد في زغشرة (من خوارزم) وسافر إلى مكة فجاور بها زمنا فسمى جار الله وتنقل في البلاد ثم عاد إلى الجرجانية وتوفي فيها من كتبه الكشاف - أسرار البلاغة والمفصل . . الأعلام ج ٧ ص ١٨٧ .

(٢٠) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجه التأويل رتبته وصنعه مصطفى حسين أحمد الطبعة الأولى مطبعة الاستقامة بالقاهرة ١٣٦٥ - ١٩٤٦ م - ج ٣ ص ٦٢ .

الخطاب للنبي - صلى الله عليه وسلم . وهو الذي أنزل عليه القرآن . أما : كلمة (إلى) فقد اختيرت حينما كان الخطاب للأمة كلها . يقول الزمخشري «فإن قلت لم عدّ أنزل في هذه الآية بحرف الاستعلاء، وفيما تقدم من مثلها بحرف الانتهاء؟ قلت : لوجود المعنيين جميعاً؛ لأن الوحي ينزل من فوق وينتهي إلى الرسل، فجاء تارة بأحد المعنيين، وأخرى بالآخرة، ومن قال : إنما قيل (علينا) لقوله : قل، و (إلينا) لقوله : (قولوا تفرقة بين الرسل والمؤمنين؛ لأن الرسول يأتيه الوحي عن طريق الاستعلاء، ويأتيهم على وجه الانتهاء، فقد تعسف، ألا ترى إلى قوله بما أنزل إليك «وأنزلنا إليك الكتاب» وإلى قوله «آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا»^(٢١).

وخلاصة القول : إن حديثنا عن عبد القاهر يغنينا عن أن تطيل الحديث عن الزمخشري، فهو وارث علمه، وشارح نظريته شرحاً عملياً في تفسير الكشف، مع فطنة وطول باع، وقوة عارضة وصفاء قريحة .

الرازي^(٢٢) :-

وقد سار على نهجهما واحد من أولئك الأئمة الذين لخصوا نظرية عبد القاهر، وأفاد من تفسير الكشف، وأعنى به الفخر الرازي - رحمه الله في كتابه «دراية الایجاز ونهاية الاعجاز - حيث عرض لهذه القضية، وناقش مخالفه، وحيثما نعمن النظر فيما كتب نجد : أن الرجل لم يأل جهداً أن يقيم الحجج مفيداً من كل ما قرره علماء المنطق والفلسفة والكلام، حتى جاء على شبه مخالفه، كما يقول - فردها واحدة واحدة ؛ رداً يدل على بضاعة غير مزجاة في قضايا المنطق والفلسفة .

(٢١) ج ١ ص ٣٨١ .

(٢٢) هو فخر الدين الرازي إمام المتكلمين وقامع المبتدعين وحجة الله على العالمين العالم المتبحر تاج المحققين أبو الفضل محمد فخر الدين بن ضياء الدين بن الحسن بن الحسين التميمي البكري الرازي الشافعي، ولدي سنة (٥٤٣هـ) وقد كان مولعاً إلى حد الغرام بالفلسفة والكلام والجدل وأصول الفقه والتصوف، توفي سنة (٦٠٦هـ) .

الفصل الثاني المحدثون من العلماء

وحديثا وجدنا من يعتبر الكلمة ميتة في المعجم، فإذا استعملت أحييت وأورقت^(٢٣).

الرافعي^(٢٤) :-

ثم جاء الأستاذ الرافعي رحمه الله، فزاد على ما ذكره الباقلاني، وعقد فصلا خاصا في كتاب «إعجاز القرآن» الذي نسأل الله أن يجزيه خيرا عنه، وهو يتكلم فيه عن الإعجاز، - إعجاز الكلمات في جملها - فيقول رحمه الله :- «أعجب شيء في أمر هذا الحس الذي يتمثل في كلمات القرآن، أنه لا يسرف على النفس، ولا يستفرغ جهودها، بل مقتصد في كل أنواع التأثير عليها؛ فلا تضيق به، ولا تنفر منه، ولا يتخونها الملاك»^(٢٥).

ثم يقول : فلا بد في مثل نظم القرآن، من : إخطار معاني الجمل، وانتزاع جملة ما يلائمها من ألفاظ اللغة، بحيث لا تشذ لفظة ولا تختلف كلمة، ثم استعمال أمسها

(٢٣) دفاع عن البلاغة - أحمد حسن الزيات . وإن كنا لا نجد في مقالته ما وجدناه عند سابقيه بل وجدناه يعتبر للفظه شأوا، ويجعل لها شأنًا، ويعتبرها من دعائم الأسلوب، ولسنا نوافقه على أن اللفظة تكون ميتة في المعجم بل إن هناك ألفاظا تحتمل معنى الحياة من قبل أن تكون في جملة ما، وهناك ألفاظ على العكس من ذلك كالبذرة في الأرض منها ما ينبت ويورق ومنها غير ذلك .

(٢٤) مصطفى صادق بن عبد الرزاق بن سعيد بن أحمد بن عبد القادر الرافعي (١٢٩٨ - ١٣٥٦ هـ = ١٨٨١ - ١٩٣٧ م) عالم بالأدب، شاعر، من كبار الكتاب أصله من طرابلس الشام ومولده في بهتيم (منزل والد أمه) ووفاته في طنطا أصيب بصمم فكان يكتب له ما يراد مخاطبته به شعره نقي الديباجة، على جفاف في أكثره ونثره من الطراز الأول / الاعلام ج ٧ ص ٢٣٥ .

(٢٥) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية / دار الكتاب العربي / بيروت، لبنان الطبعة التاسعة سنة ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م ص ٢٢٣ .

رحما بالمعنى ، وأفصحها في الدلالة عليه ، وأبلغها في التصوير ، وأحسنها في النسق ، وأبدعها سناء ، وأكثرها غناء ، وأصفها رونقا وماء»^(٢٦) .

ثم يقول : ولقد صارت ألفاظ القرآن بطريفة استعمالها ووجه تركيبها ، كأنها فوق اللغة ، فإن أحدا من البلغاء ، لا تمتنع عليه فصاحة هذه العربية متى أرادها ، وهي بعد في الدواوين والكتب ، ولكن لا تقع له مثل ألفاظ القرآن في كلامه ، وإن اتفقت له نفس هذه الألفاظ بحروفها ومعانيها ؛ لأنها في القرآن تظهر في تركيب ممتع فترفيه ، ولهذا ترتفع إلى أنواع أسس من الدلالة اللغوية ، أو البيانية التي هي طبيعية فيها ،^(٢٧) فتخرج من لغة الاستعمال إلى لغة الفهم ، وتكون بتركيبها المعجز طبقة عقلية في اللغة .

ثم يسوق من الأمثلة على ذلك فيقول : من ذلك لفظة (النذر) جمع نذير ، فإن الضمة ثقيلة فيها لتواليها على النون والذال معا ، فضلا عن جسأة هذا الحرف ونبوه في اللسان ، وخاصة إذا جاء فاصلة للكلام . فكل ذلك مما يكشف عنه ، ويفصح عن موضوع الثقل فيه ، ولكنه جاء في القرآن على العكس وانتفى من طبيعته في قوله تعالى «ولقد أنذرهم بطشتنا فتمأروا بالنذر» (القمر آية ٣٦) فتأمل هذا التركيب ، وأنعم ثم أنعم على تأمله ، وتذوق مواقع الحروف ، وأجر حركاتها في حسّ السمع ، وتأمل مواضع القلقلة في دال (لقد) وفي الطاء من (بطشتنا) وهذه الفتحات المتوالية فيها وراء الطاء إلى واو (تمأروا) ، مع الفصل بالمد ؛ كأنها تثقيل لخفة التتابع في الفتحات ، إذا هي جرت على اللسان ، ليكون ثقل الضمة عليه مستخفا بعد . . الخ^(٢٨) .

ثم يمضي الأستاذ مصطفى صادق الرافعي - رحمه الله يستشهد على ما أراد ببعض الآيات القرآنية ، فيذكر كلمة (ضيبي) وموقعها في السياق الذي جاءت فيه ، ثم يمثل لما يتوهم بأنه زائد في اصطلاح النحاة ، مثل كلمة (ما) في قوله تعالى (فبما رحمة من الله لنت لهم) (آل عمران آية ١٥٩) وكلمة أن في قوله تعالى (فلما أن جاء البشير)

(٢٦) ص ٢٢٦ .

(٢٧) ص ٢٢٦ .

(٢٨) ص ٢٢٧ .

(يوسف آية ٩٦)، كما يذكر كلمات هي من أكثر الكلمات حروفاً. مثل (ليستخلفنهم) (النور آية ٥٥)، (فسيكفيهم الله) (البقرة آية ١٣٧)، ويعرض بعد ذلك لكلمات جاءت مجموعة غير مفردة.

وذلك مثل : (ألباب) (وأكواب) (وأوجاء)، وأخرى جاءت مفردة غير مجموعة، مثل : كلمة أرض ويختتم هذا الفصل بأن هناك كلمات أعرض عنها القرآن، مثل : كلمة (آجر) واستبدالها بغيرها مثل (أوقد لي يا هامان على الطين) (القصص آية ٣٨). والمتأمل لما ذكره الأستاذ الراجعي - رحمه الله وما فيه من تصوير رائع، وإبداع يتألف فيه الاشرار، وبيان مدهش، يأخذ باللب، ويأسر القلب. أقول : المتأمل في ذلك كله؛ يجد أن الأستاذ الراجعي، كان يهدف لبيان ما تحدّثه الكلمات القرآنية، في أرجاء النفس من تأثير بما لها من جرس، وتصوير بما فيها من حس، حيث يشير في بداية الموضوع إلى الأصوات الثلاثة؛ وهي : صوت النفس، وصوت العقل، وصوت الحس. وهذا الأخير هو الذي وجدوه في الكلمة القرآنية، حيث كانت تخلو منه كلماتهم، فهم وإن تعاطوه، لكنهم لم يعطوه، وهذه الجهة في ظني لعلها كانت - أول ما تأثر به العرب، وهم يستمعون لكتاب الله تعالى، وهو يتلى عليهم لأول وهلة، ولكن سعة البيان القرآني التي هي من سعة علم الله تبارك وتعالى - تجعلنا لا نقف أمام جهة واحدة من هذا البيان، كما لا يستشف ذلك من كلام الأستاذ الراجعي، بل لا بد من أن ننقب ونبحث، ونمعن النظر، ونجبل الفكر؛ لنقف من الكلمة القرآنية أمام لفتات تمد النفس والعقل بما ينير ويريح، وتفتح لهما أبواباً من السر القرآني المكنون، وأقصد من ذلك : أن نقف أمام الكلمة القرآنية من حيث دقة ما تعطيه من معنى.

إن ما ذكره الراجعي، يرجع إلى واحد من الوجهين اللذين ذكرهما الخطابي. رحمه الله، وهو يتحدث عن الكلمة، وهو : ما يتعلق بالكلمة من حيث رونقها وبهاؤها، وجرسها وخفتها.

الشيخ أبو زهرة :

ثم جاء الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة - رحمه الله فعقد فصلا في كتابه المعجزة، عرض فيه وجهتي النظر السابقتين، فاستشهد على وجهة النظر الثانية وهي : أن الكلمة لا دخل لها في الاعجاز بكلام الشيخ عبد القاهر ، كما استشهد على الوجهة الأولى : بشيء من كلام الباقلاني والرافعي رحمهم الله . ولكن شيخنا ساعه الله بعد أن صور هذا الموضوع تصويرا يدرك القارئ منه بعد الشقة بين النظريتين، وعمق الهوة - وما نظن الأمر كذلك - يحاول بعد ذلك أن يقلل من شأن هذا الخلاف، بل لعله يزيله البتة، لما يظهر من كلامه . ونحب أن نقل شيئا مما كتبه ؛ حتى لا نضل حكمنا الذي حكمناه . يقول رحمه الله : «هذان رأيان يبدو أنهما متعارضان، في كون فصاحة الكلمة جزءا من البلاغة أو الفصاحة، وإن لم يكن بينهما فرق . فالأول : لا ينظر إلى الجزء - وهو الكلمة - بل لا ينظر إلا إلى المجموع المؤلف .

والآخر : ينظر إلى الأجزاء وإلى المجموع معا، بل لا يرى المجموع يكون بليغا إلا إذا انتهى إلى ألحان مؤتلفة، من حروف كلمات متألفة، وكلمات في أسلوب مؤتلف في نغماته وترتيبه وتناسق بيانه .

ولا شك أن الكلمة وحدها من غير أن تكون في مجموعة - ليس لها بلاغة ولا مؤدي، فكلمة شجر من غير أن تكون في كلام ليس لها مؤدي، إلا أن تكون في جملة مفيدة تؤدي معنى، وتكون بحروفها ورقتها أو لينها متأخية مع أخواتها من الكلام . ولكن لا بد للكلمة مع الكلمات الأخرى من أن تكون متلاقية في لحن القول والمراد منه، وتحقيقه، فهي وحدها لا تؤدي منفردة، ولكن بضمها إلى أخرى يكون المعنى القوى، ويكون النغم الجميل، ويكون الترتيل الذي يملأ النفوس، وتطمئن به، وتتشعر منه الأبدان إن أُنذر، وتهدا إن بشر، وتفتكر العقول إن دعا إلى التأمل^(٢٩) . ثم يقول : وينتهي القول في هذا . إلى : أن الخلاف بين الباقلاني والخطابي والجاحظ

(٢٩) المعجزة الكبرى للقرآن ص ١٠٦ .

وغيرهم - يكون في أمرين غير جوهريين .

أولهما : أن الجرجاني لا يعتبر للألفاظ منفردة فصاحة أو بلاغة إلا في ضمن كلام مجتمع ، وحينئذ يكون التأخي أولاً وبالذات في المعاني ، وكون الألفاظ واضحة الدلالة على هذه المعاني والتأخي - يكون في المعاني ابتداء .

ثانيهما : أنه لا يعتبر الفصاحة غير البلاغة ، لأن الفصاحة عند من يفرقون بين الفصاحة والبلاغة - تكون في تلاؤم الحروف ، وتلاؤم الكلمات والألفاظ ، كما قال ابن الأثير : جمال أوتار أحياناً ، وغير ذلك أحياناً^(٣٠) .

ومخلص الشيخ - رحمه الله إلى أن الكلمة القرآنية ليست فصيحة فحسب ، بل هي بليغة كذلك .

ويأتينا الشيخ بأمثلة من كتاب الله تعالى ، يبين فيها استقرار الكلمة القرآنية في موضعها ، وما أخال الذي ذكره جديداً على العلماء ، ولكي لا أكون متعسفاً غير منصف أذكر شيئاً موجزاً مما جاء به . يقول عند قوله تعالى : « وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان » (النحل آية ١١٢) .

إذا قرأنا ورددنا البصر كرتين ، وجدنا كل كلمة في حيزها لا تفارقه ، ولو فارقت لوجدناه فارغاً لا يملؤه غيرها ، ولنبتديء بالاشارة إلى ما في كل كلمة مما اختصت به .

الأولى : كلمة آمنة ، فالأمن معناه : عدم الخوف من مغير يغير عليهم ، أو عدو يساورهم ، ولعل ذلك إشارة إلى مكة .

الثانية : كلمة مطمئنة ، فمعنى الاطمئنان يتصل بالنفس ، فهي قد منحها الله تعالى القرار والسكون ، والدعة من غير ضعف .

الثالثة : يأتيها رزقها ؛ فإن هذا يشير إلى سهولة الحياة ، وأنه لا يأتيهم كسائر العرب بانتجاع الكلاء ، والتنقل في الصحراء ، لا ينالون الحياة إلا بشق الأنفس ، وبذوقهم في طلبهم حر الحياة وقرها .

الرابعة : كلمة رغدا : فالرغد هو الرزق الطيب المذاق، المرء، غير الوبي، وهو: الواسع الكثير. فهم في رزق يأتيهم سهلا طيبا، واسعا مرثيا، لا وباء فيه ^(٣١).
رحم الله شيخنا، وكنا نتمنى أن يكون أكثر غوصا في التقاط الدرر القرآنية، لنفيد من علمه، فهو كما عرفناه غزير العلم، جم المعرفة، جزاه الله خيرا بما قدم للمسلمين وبما ذب عن دين الله.

ومع ذلك فلسنا مع الشيخ، وقد حاول أن يهون من الخلاف بين النظريتين، فهو خلاف غير جوهري - كما يقول - ونظن أننا من خلال الدراسة السابقة، نحسب أن الأمر غير ما ذكره الشيخ، إنها نظريتان : إحداهما : تجعل من عناصر الفصاحة والاعجاز اختيار الألفاظ، واختيار المقاطع.
والأخرى : تذهب غير هذا المذهب، فتبعد اللفظ إبعادا كليا عن موطن الاعجاز وساح الفصاحة.

بنت الشاطيء :

وقبل أن نتجاوز هذا الفصل، يجمل بنا أن نشير إلى كتاب ذي صلة مباشرة بموضوعنا الذي نتحدث عنه. وهو الاعجاز البياني للقرآن الكريم. بذلت فيه الكتابة جهدا مشكورا، ينظم أبحاثا قيمة جيدة، يعيننا منها حديثها عن المفردات القرآنية لنسجل هاتين الملاحظتين :

أولاهما : حديث الكاتبة عن مسائل نافع بن الأزرق. والأخرى : في تفسير بعض الألفاظ القرآنية. ومن الانصاف أن نقرر أن هذه الأخيرة كانت محاولة مشكورة، حاولت فيها الكاتبة تحديد المعنى لبعض الألفاظ القرآنية الكريمة. وفي حديثها عن مسائل نافع بن الأزرق، ذكرت لنا مقدمات عن اهتمام المغاربة بهذه المسائل، وما قالوه

(٣١) ص ١١٠.

في تلك المسائل من منظومات^(٣٢). وهذا حسن، لكننا كنا نود من كاتبنا أن يتحدث لنا عن القيمة العلمية لهذه المسائل، وما يدور حولها من مباحث، سواء كانت تتعلق بالسند أم بالمتن، مع أنها خصصت لها نصف الكتاب أو يزيد، كما كنا نود أن تعالجها علاجاً علمياً موضوعياً :

أولاً : هل يمكن أن نجزم بصحة سند هذه المسائل؟
ثانياً : هل يمكن أن يوجه نافع مسائله هذه، التي تقرب المثبتين - لابن عباس في مجلس واحد، واستشهد على كل مسألة بأبيات من الشعر، وأن يحفظ الجالسون أو بعضهم ذلك كله في هذا المجلس؟!؟

ثالثاً : كان بعض هذه الأسئلة عن كلمات ما أظن أن أحداً في زماننا يجهلها، فكيف يمكن أن يسأل عنها في ذلك العصر؟ أي أن هذه الأسئلة لم تكن كلها عما هو غريب .
رابعا : كان بعض الشعر الذي استشهد به ابن عباس رضى الله عنهما لاؤلئك الذي قرؤوا القرآن وعرفوا مضمون كلماته بعد نزولها كعبد الله بن رواحة رضى الله عنه - حيث استشهد ابن عباس بشعره حينما سأله نافع عن كلمتي : فاز، وينزفون . وبشعر عمر بن أبي ربيعة، حيث استشهد ابن عباس بشعره، حينما سئل عن كلمة : تضحى في قوله تعالى : «وأنت لا تظمأ فيها ولا تضحى (سورة طه آية ١١٩) أفيكون شأن نافع الجدل الخصب اللسن، أن يرضى بمثل ذلك الشعر وهو يسأل عما قالته العرب قديماً ؟ ثم أفيكون شأن ابن عباس الفطن اليقظ الذكي أن يستشهد له بمثل شعر ابن أبي ربيعة^(٣٣) .

خامساً : كانت الكاتبة تعلق على كل إجابة ، فتقرها حيناً، وتمحصها حيناً آخر، وأظن أن القول لو صح كله عن ابن عباس - رضى الله عنهما - ما كان لنا أن نغير عنه ونبذل، إن مثل هذه القضايا المهمة حرية أن تأخذ لها كل حيلة وحذر، وأن نحيطها بكل فكرة ونظر، وأن نعدّ لها كل عدة .

(٣٢) الاعجاز البياني للقرآن ومسائل نافع بن الأزرق، دار المعارف بمصر ص ٢٦٧ .

(٣٣) البيان القرآني لمحمد رجب البيومي .

سادسا : لم تشر الكاتبة إلى سند هذه المسائل من قريب أو بعيد، بل إن الأسلوب الذي ذكرتها به يوهم القارئ بصحة السند وقوته، والأمر على العكس من ذلك تماما.

والمؤلم حقا أنها ليست وحدها التي أهملت قضية السند، بل جل الذين كتبوا حول مسائل ابن الأزرقي كانوا كذلك.

لذا أجد من الخير والفائدة هنا، والامانة والانصاف، أن أعرض لاسانيد هذه المسائل.

رويت مسائل نافع من ثلاث طرق.

أولا : ما أخرجه ابن الأنباري في الوقف والابتداء^(٣٤).

ثانيا : ما أخرجه الطبراني في المعجم الكبير.

ثالثا : ما رواه السيوطي في الاتقان بسنده.

أما إسناد ابن الأنباري : ففيه محمد بن يزيد الشكري الميموني. قال : كذاب أعور يضع الحديث. وقال ابن المديني : رميت بما كتبت عنه، وضعفه جدا وكذا قال أبو زرعة، والدارقطني وابن معين، وذكروا له أحاديث موضوعة.

وأما إسناد الطبراني : ففيه جوهر بن سعيد بن القاسم صاحب الضحاك، قال ابن معين : ليس بشيء، وقال النسائي والدارقطني وغيرهما : متروك الحديث. وذكروا له أحاديث موضوعة.

وأما سند السيوطي : ففيه عيسى ابن دأب. وهو ابن يزيد، قال البخاري وغيره : منكر الحديث، وكذا قال حاتم. وقال خلف الأحمر : كان يضع الحديث.

وبعد فهذه هي أسانيد مسائل ابن الأزرقي، جرى بها أن تمحص، وجرى بنا أن نكون أكثر حيلة ونحن نتحدث عنها.

(٢٤) جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال أبي بكر السيوطي، ولد سنة (٨٤٩هـ) نشأ يتيما وحفظ القرآن صغيرا، أخذ عن الشيخ محيي الدين الكافيجي، التفسير والأصول والعربية والمعاني، رزق التبحر في سبعة علوم التفسير والحديث والفقه والنحو والمعاني والبدیع والبيان توفي سنة (٩١١هـ) الاتقان في علوم القرآن، الطبعة الثالثة ١٣٧٠هـ ١٩٥١م مطبعة مصطفى البابي الحلبي ج ١ ص ١٣٣.

- ٤٨ -

اعلم أن الأمر ليست كما قالت ، وأن الفرق بين امرأة وزوج من جهتين .
(أولا : أن امرأة تطلق على الأنثى من الناس ، حتى لو لم تكن ذات زوج ، فكأنها هي تأنيث مرء . قال تعالى في سورة القصص (ووجد من دونها امرأتين تذودان) (اية ٢٣) وقال في سورة الاحزاب : وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي (آية ٥٠) وليس من الضرورة أن تتعطل بخيانة أو تباين عقيدة .
ويحدثنا القرآن عن امرأة إبراهيم (وامراته قائمة فضحكت) (سورة هود آية ٧١) وليس ثمة خيانة أو تباين عقيدة بين إبراهيم وامراته . أما الزوج فلا تكون إلا حيث الزوجية قائمة .

ثانيا : تطلق كلمة زوج حينما يواط أمر بين الزوجين ، أي حينما تكون قضية مشتركة بينهما : (اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا) (سورة البقرة آية ٣٥) (يا أيها النبي قل لأزواجك) (الأحزاب آية ٢٨) (وأصلحنا له زوجه) (الأنبياء آية ٩٠) (وإن فاتكم شيء من أزواجكم) (سورة الممتحنة آية ١١) فنحن نرى في هذه الآيات الكريمة : أن هناك قضايا مشتركة بين الزوجين ، سواء كانت هذه القضية تبليغا ، أم إنجابا أم أمرا آخر .

أما النعيم والنعمة ، فترى الكاتبة أن : النعمة هي ما كانت دنيوية فحسب ، وأن النعيم ما كان آخرويا فقط ، وأن قول الله تعالى : «ثم لتسئلن يومئذ عن النعيم» (التكاثر آية ٨) إنما يقصد به النعيم الآخروي ، أي حينما يرون الجحيم يسألونك عن النعيم الذي ضيعوه ، ومع أن هذا التفسير خلاف ما يتبادر من فهم الآية الكريمة ، وما يسند لها من آثار فإن الذي نحسبه - والله أعلم - أن النعمة تختلف عن النعيم ، من حيث هي واحدة ، أما النعيم فكأنها هو اسم لجملة من النعيم ، وإنما لم يسألنا الله عن النعمة لأننا نعيش في أنعم كثيرة . «وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها» (النحل آية ١٨) فكأنها النعيم يدل على ما فيه زيادة على ما تقضيه ضرورات الحياة ، ثم إن النعيم جاء موصوفا ، ونظن أن وصف النعيم في مثل قول الله تعالى «وجنات لهم فيها نعيم مقيم» (براءة آية ٢١) لا يؤيد ما ذهب إليه ، وأيضا فلقد استعملت كلمة نعيم

مقصودا به النعيم الدنيوي ، في قول لبيد «وقول نعيم لا محالة زائل» لذلك استثنى من نعيم الجنة والله أعلم .

وأكتفى بما ذكرته هنا عن جهود علماء البيان في هذا الفصل ، وإن كنت لا أدعي أنني أملت بكل صغيرة وكبيرة في هذا الموضوع لأن طبيعة البحث لا تسمح بذلك ، ومع هذا فإن هناك قضايا عرض لها أصحابها ، وهم يتحدثون عن الكلمة القرآنية ، حرى بنا أن نناقشها ، وألا نقف موقف الاذعان والتسليم ، مع جلالة أصحابها وإجلالنا لهم ، لكن الحق أحق أن يتبع ، وذلك ما سأعرض له في الفصل الأخير من هذا البحث إن شاء الله .

الفصل الثالث ملحوظات ومناقشات

إن ما ينبغي أن نسجله ونناقشه هنا، أن الكثيرين الذين تحدثوا عن اللفظة القرآنية كان حديثهم عنها، وإعجابهم بها - من حيث الخفة في النطق، والكلمة تسره من أجل جمال إيقاعها، وما لها من جميل جرس تحدثه في أرجاء النفس، ولقد مر بنا طرف من ذلك فيما ذكره الرافعي - رحمه الله تعالى - ومن قبل الرافعي حينما نمعن النظر في تراثنا العظيم، نجد هذه القضية ظاهرة واضحة. فهذا البارزى^(٣٩) - رحمه الله تعالى - في أول كتاب أنوار التحصيل في أسرار التنزيل - كما ينقل عنه السيوطي في الاتقان يقول : (اعلم أن المعنى الواحد قد يخبر عنه بالفاظ، بعضها أحسن من بعض، وكذلك كل واحد من جزأى الجملة قد يعبر عنه بأفصح ما يلائم الجزء الآخر، ولا بد : من استحضار معاني الجمل، أو استحضار جميع ما يلائمها من الألفاظ، ثم استعمال أنسبها وأفصحها. واستحضار هذا متعذر على البشر في أكثر الأحوال. وذلك كثير حاصل في علم الله، فلذلك كان القرآن أحسن الحديث وأفصحه، وإن كان مشتملا على الفصيح والأفصح، والمليح والأملح، ولذلك أمثلة منها : قوله تعالى : «وجنى الجنتين دان» لو قال مكانه «وثمر الجنتين قريب» لم يقم مقامه من جهة الجناس بين الجنى والجنتين، ومن جهة أن الثمر لا يشعر مصيره إلى حال يجنى فيها، ومن جهة مؤاخاة الفواصل.

منها قوله تعالى «وما كنت تتلو من قبله من كتاب «أحسن التعبير» بتقرأ لثقله بالهمزة.

(٣٩) هبة الله بن عبد الرحيم بن إبراهيم بن هبة الله بن المسلم بن هبة الله الجهيني الشافعي الحموي المعروف بابن البارزى شرف الدين أبو القاسم (٦٤٥ - ٧٢٨ = ١٣٤٧ - ١٣٣٨م) مفسر، مقررء محدث، فقيه، اصولى نحوى، لغوى عروضى، ولد بجهة في ٥ رمضان وسمع من والده وعز الدين الفاروقى وجمال الدين بن مالك ولي قضاء حماة، وحدث بدمشق وحماة وتوفى بحماة. معجم المؤلفين ج ١٣ ص ١٣٩.

ومنها «لا ريب فيه» أحسن من «لا شك فيه»، لثقل الادغام، ولهذا كثر ذكر الريب.

ومنها ولا تنهوا، أحسن من ولا تضعفوا، لخفته، وهن العظم أحسن من ضعف؛ لكون الفتحة أخف من الضمة ومنها آمن أخف من صدق. ولذا كان ذكره أخف من التصديق، وآثر الله أخف من فضلك، وأتى أخف من أعطى، وأنذر أكثر من خوف، وخير لكم أفضل من أفضل لكم. والمصدر في نحو هذا خلق الله «يؤمنون بالغيب» أخف من مخلوق وبالغيب أخف من الغائب، ونكح أخف من تزوج، وأن فعل أخف من تفعل، ولهذا كان ذكر النكاح فيه أكثر.

ولأجل التخفيف والاختصار استعمل لفظ الرحمة والغضب، والرضا والحب، والمقت، في أوصاف الله تعالى مع أنه لا يوصف حقيقة، ولأنه لو عبر عن ذلك بألفاظه الحقيقية لطال الكلام، كأن يقال: يعامله معاملة المحب والمأقت. فالمجاز في مثل هذا أفضل من الحقيقة؛ لخفته واختصاره، وابتناؤه على التشبيه البليغ، فإن قوله «فلما آسفونا انتقمنا منهم» أحسن من فلما عاملونا معاملة الغضب، أو فلما أتوا إلينا بما يأتيه الم غضب»^(٤٠)

وهذا ابن الأثير - رحمه الله تعالى - يقول: «ومن عجب ذلك أنك ترى لفظتين تدلان على معنى واحد، وكلاهما حسن في الاستعمال، وهما على وزن واحد، وعدة واحدة، إلا أنه لا يحسن استعمال هذه في كل مواضع تستعمل فيه هذه، بل يفرق بينهما في مواضع السبك، وهذا لا يدركه إلا من دق فهمه وجل نظره.

فمن ذلك قوله تعالى: (ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه) (الأحزاب آية ٤) وقوله تعالى «رب إني نذرت لك ما في بطني محررا» (آل عمران آية ٣٥) فاستعمل الجوف في الأولى، والبطن في الثانية، ولم يستعمل الجوف موضع البطن، ولا البطن في موضع الجوف واللفظتان سواء في الدلالة، وهما ثلاثيتان في عدد واحد، ووزنهما واحد أيضا، فانظر إلى سبق الألفاظ كيف تفعل؟ وما يجري في هذا المجرى قوله

(٤٠) الاتفاق ج ٢ ص ١٢٥.

تعالى : «ما كذب الفؤاد ما رأى» (النجم ية ١١) وقوله (إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد) (ق آية ٣٧) فالقلب والفؤاد سواء في الدلالة وإن كانا مختلفين في الوزن، ولم يستعمل القرآن أحدهما موضع الآخر^(٤١) .

ولا يشك من يقرأ هذين النصين، بأن خفة الكلمة وعدمها كان الأصل الذي يستند إليه هذان العالمان، ومع تقديرنا لما ذكرناه من خفة الكلمة القرآنية على اللسان، لكننا لا نسلم لهم أن ذلك هو السبب الوحيد الذي من أجله تستعمل كلمة مكان كلمة، فنحن لسنا مع البارزي فيما ذهب إليه، من أن الريب استعمل مكان الشك لخفته، وعدم الادغام فيه، ولو كان الأمر كذلك لا ينبغي أن نستعمل كلمة شك في القرآن البتة، والأمر ليس كذلك ولسنا معه كذلك في أن القرآن الكريم استعملت فيه كلمة تتلو في قوله تعالى «وما كنت تتلو من قبله من كتاب» (العنكبوت آية ٤٨) لأنها أخف من كلمة تقرأ فحسب، فإن مع الخفة سبب آخر، فهناك فرق في المعنى بين التلاوة والقراءة^(٤٢) .

وكذلك في كلمة الوهن والضعف، والايان والتصديق، والاعطاء والاياء، والانذار والتخويف، فإننا نجد هذه الكلمات جميعا استعملت في كتاب الله، قال تعالى : «فلا صدق ولا صلى» (القيامة آية ٣٧) وفي التنزيل (إنا أعطيناك الكوثر) (آية ١) «إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه» (آل عمران آية ١٧٥) والحق أن هناك فروقا

(٣١) نصر الله بن محمد بن عبد الكريم الشيباني، الجزري أبو الفتح ضياء الدين المعروف بابن الأثير الكاتب (٥٥٨ هـ - ٦٣٧ هـ = ١١٦٣ - ١٢٣٩ م) وزير من العلماء الكتاب المترسلين، اتصل بخدمة السلطان صلاح الدين وولي الوزارة للملك الأفضل بن صلاح الدين له من التصانيف «المفتاح المنشأ» لحديقة الأشا والجامع الكبير/ المثل السائر طبعة الباي الحلبي ج ١ ص ١٤٣ .

(٤٢) الحسن بن عبد الله بن سهل، بن سعيد، ابن يحيى، بن مهران العسكري، أبو هلال (ت ٣٩٥ هـ - ١٠٠٥ م) عالم بالأدب له شعره، نسبته الى (عسكر مكرم) من نور الأهواز من كتبه «التخليص»، «جمهرة الأمثال»، «كتاب الصناعتين» الاعلام ج ٢ ص ١٩٦ .
الفوارق اللغوية حققه حسام الدين القدسي سنة ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م دار الكتب العلمية، بيروت ص ١٦ .

بين هذه الكلمات، فإلإعطاء ليس هو الإيتاء، والانداز يختلف عن التخويف^(٤٣).

إن الكلمات التي ذكرها البارزي، مفضلاً بعضها على بعض، نجدّها جميعها في كتاب الله تعالى، فاضلها ومفضولها كما ذكر، ولو أن الأمر كما قال ما كان ينبغي أن تذكر الكلمات المفضولة، إن بين الشك والريب فروقا لا فرقا واحدا، وكذلك الإعطاء والإيتاء، والانداز والتخويف، والإيمان والتصديق، والدنو والقرب، والجنى والثمر، فالريب : ما فيه تهمة وما تضطرب فيه النفس، والشك ليس كذلك، والانداز لا بد فيه من الاعلام والتخويف مع مهلة، والجنى أخص من الثمر، وكذلك الدنو والقرب.

وإذا كانت تتلو أخف من تقرأ - كما يقول - فلماذا استعملت هذه الكلمة كثيرا في كتاب الله «لتقرأه على الناس على مكث» (الاسراء آية ١٠٦) ولماذا استعمل كلمة التفضيل، ما دامت كلمة الإيتاء أخف بالاستعمال «والله فضل بعضكم على بعض»، وكذلك الوهن والضعف، هل كل ضعف يسمى وهنا؟، الذي نذكره من الآيات الكريمة غير هذا.

لقد جاء الضعف في كتاب الله تعالى مقابل القوة، لكن الوهن جاء في مقابلة العلو، قال تعالى «الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة» (الروم آية ٥٤) وفي الحديث «المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف وفي كل خير» وقال تعالى «ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين» (١٣٩ - آل عمران) وقد يكون الوهن ضعفا من حيث الخلقة «قال رب إني وهن العظم مني» (مريم آية ٤).

وعجيب من البارزي، أن يعد كلمتي «خير لكم وأفضل» سواء في الدلالة، والحس يشهد بما بينهما من فرق واضح، وهكذا فليس ماقرره البارزي جديرا بالبروز.

(٤٣) محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي شهاب الدين أبو التناد (١٢١٧ - ١٢٧٠هـ = ١٨٠٢ - ١٨٥٤) مفسر، محدث، أديب لغوي، نحوي مشارك في بعض العلوم، تقلد الافتاء في بغداد، وسافر الى الموصل فالقسطنطينية. وأكرمه السلطان عبد المجيد وعاد إلى بغداد. من تصانيفه : روح المعاني، كشف الطرة عن الغرة في شرح درة الغواص للحريري، روح المعاني، تفسير سورة الكوثر ج ٣٠ معجم المؤلفين ج ١٢ ص ١٧٦.

* أخرجه الامام مسلم كتاب القدر باب الايمان للقدر والاذعان له / صحيح مسلم بشرح النووي ج ٣ ص ٣١٥.

أما صاحب المثل السائر - رحمه الله تعالى - فإن عجبنا منه أشد ، وعتبنا عليه أكثر ، كيف يمكن أن يكون للجوف والبطن مدلول واحد؟ وهل يمكن لا امرأة عمران أن تقول نذرت ما في جوفي؟! إن بطن كل شيء أسفله ، ولقد جاءت كلمة بطن في كتاب الله تعالى مستقرا للأجنة أو الغذاء ، قال تعالى «أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار» (البقرة آية ١٧٤) وقال سبحانه «والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا» (النحل آية ٧٨) وفي القرآن شواهد كثيرة لهذا الذي ذكرت ، ولقد جاء الجوف «ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه» وفي قول النبي صلى الله عليه وسلم «لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في جوف عبد مسلم»^(٤٤) .

ومع أن القلب قد لا يقصد به تلك المضغة ذات الشكل الصنوبري ، إلا أن هذه المضغة كذلك ليست في البطن الذي هو مستقر الغذاء الذي يشتمل على الأمعاء وغيرها .

وكذلك الفؤاد والقلب ليسا شيئا واحدا ، فلكل من الفؤاد والقلب مدلوله الخاص .

إن جمال إيقاع الكلمة القرآنية أمر مسلم به ، ولكنه ليس وحده المرتكز ، الذي يستند إليه وجود هذه الكلمة أو تلك . ومع يقيننا بأن كلمة القلوب في قوله تعالى «لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور» (الحج آية ٤٧) أجمل إيقاعا وأخف حركة ، وأعذب نطقا ، من كلمة أفئدة . كما أن كلمة أفئدة في قول الله تعالى «فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم» (إبراهيم آية ٣٧) هي كذلك إذا قورنت مع كلمة قلوب ، ولكن ليس ذلك السبب وحده ، الذي من أجله استعملت كل كلمة في موضعها في كتاب الله تبارك وتعالى وقد جاءت الكلمتان في قول الله تعالى : «وأصبح فؤاد أم موسى فارغا إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها» (القصص آية ١٠) فالفؤاد آلة التفكير ، بدليل اقترانه بالسمع والبصر ، وهما آلتا إدراك المسموعات والمبصرات ، أما القلب فقد يكون أداة التفكير ، أو الشعور والوجدان ، أو

(٤٤) أخرجه ابن ماجه كتاب الجهاد باب الخروج والغير رقم (٩) رقم الحديث ٢٧٧٤ .

الارادة «لهم قلوب لا يفقهون بها» (الأعراف آية ١٧٩) «إذا ذكر الله وجلت قلوبهم» (الأنفال آية ٢) «ولكن ما تعمدت قلوبكم» (الأحزاب آية ٥) .
إن كلمتي آباء وأمهات، في قول الله تعالى : ولا تنكحوا ما نكح آبائكم من النساء إلا ما قد سلف، إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا، حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم» (النساء آية ٢٢، ٢٣) لا شك بأنها أجل إيقاعا، وأعذب نطقا من كلمتي والدات ووالدين .

ولكننا نقرأ قول الله تعالى «والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة، وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف» (البقرة آية ٢٣٣) فنجد أن هاتين الكلمتين والدات، والمولود له، جاءتا من حيث الخفة والجرس - بما لا مزيد عليه من جمال وروعة، ولكن ليس من أجل تلك الخفة وذلك الجمال الإيقاعي فحسب، جاءت كل كلمة في موضعها، ذلك لأن الآباء والأمهات جاءا في سياق التحريم. ففيهما من الاجلال والتنفير ما لا مزيد عليه، وكذلك كلمتا الوالدات والمولود له، فيهما من العاطفية والحنان، والتذكير والرحمة ما لا مزيد عليه كذلك .
ولعل ما يوضح ما نحن بصدده هاتان الآيتان «ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم» (الاسراء آية ١٥١) حيث استعملت كلمة إملاق محل كلمة جوع .

ولما كان هذا الاملاق متوقعا، غير واقع بالفعل، قدم ضمير الأولاد، بينما قدم ضمير المخاطبين، كما في سورة الأنعام، حينما كان هذا الاملاق أمرا واقعا .

على أن مسألة الخفة والثقل أمر نسبي، فكلمة آجر مثلا لم تستعمل في كتاب الله . وذلك لثقلها كما يقول الرافعي، لكن ابن الأثير يرى عدم استعمالها لكونها مبتذلة، مثل كلمتي القرميد والطوب^(٤٥) .

وقد تستعمل الكلمة في كتاب الله تعالى، وحديث الرسول عليه الصلاة والسلام، فتكون آية في الملاحاة والعذوبة، وقد تستعمل في غيرهما فتكون نابية مججوجة . وقد

(٤٥) المثل السائر ج ١ ص ١٨٤ .

ذكر ابن سنان في سر الفصاحة، ومن بعده ابن الأثير في المثل السائر أمثلة كثيرة من ذلك .

لذلك كلمة يؤذي في قول الله تعالى «إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحي منكم» (الأحزاب آية ٥٣) وكلمة قَمَل في قوله سبحانه : «فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل» (الأعراف آية ١٣٣) وكلمة مقاعد في قوله سبحانه : «واذ غدوت من أهلك تبوء المؤمنون مقاعد للقتال» (آل عمران آية ١٢١) وكلمة جُحر في قول النبي عليه الصلاة والسلام «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين»^(٤٦) فقد وردت هذه في شعر الشعراء، كالمتنبي والشريف الرضي وهما من الشعراء المبدعين وغيرهما فأنزلت شعرهم الذي وردت فيه مثل هذه الكلمات، عن مكاتته^(٤٧) .

وخلاصة القول : إننا لسنا مع البارزي فيما ذهب إليه، من أن في القرآن الكريم المליح والأملح، والفصيح والأفصح، بل كلمات القرآن جاءت بحيث لا يوجد أفصح ولا أملح منها في مواقعها ومواضعها، ولسنا معه كذلك ولا مع ابن الأثير، في اعتبار الخفة وعدم الابتذال، ولا مع ابن سنان في أن تباعد المخارج وعدم الطول في الكلمة - الأساس الذي ينبغي أن نكتفي به^(٤٨)، ونحن نتحدث عن كلمات القرآن الكريم . لكن هناك اعتبارات تتعلق بدقة المعنى وتحديد المدلول، والوفاء بالقصد - ينبغي أن تدرس دراسة موضوعية، توصلنا إلى سر الاعجاز، وروعة الایجاز، ودقة المسلك، في كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

(٤٦) رواه مسلم في كتاب الزهد ج ٤ ص ٢٢٩٥ رقم - ٦٣ - ٢٩٩٨ ورواه البخاري أدب ٧٢ ح / ٨ ص ٣٨ الحديث الاول باب رقم ١٢ (لا يلدغ) .

(٤٧) انظر المثل السائر ج ١ ص ١٤٥ وما بعدها، وانظر سر الفصاحة لابن سنان طبعة الخانجي ١٩٣٢ - ٦٠ - ٨٠ .

(٤٨) عبد بن سعيد بن سنان أبو محمد الخفاجي الحلي (٤٢٣ - ٤٦٦ هـ = ١٠٣٢ - ١٠٧٣) شاعر أخذ الأدب عن أبي العلاء المعري وغيره كانت له ولاية بقلعة «غراز» من أعمال حلب وعصى بها، فاحتيل عليه باطعان (خشكناجه) مسمومة فمات، وحمل على حلب، له ديوان شعر و«سر الفصاحة» الأعلام ج ٤ ص ١٢٢ سر الفصاحة، طبعة الخانجي ١٩٣٢ ص ٦٠ - ٨٠ .

ونحسب أن الخطابي - رحمه الله تعالى - وفق التوفيق كله، حينما لا حظ هذا الأمر فذكر هذين السببين لمجيء الكلمة في كتاب الله تعالى : دقة المعنى من جهة، والخفة والرونق من جهة أخرى كما ذكرنا ذلك من قبل .

لقد ذكرت كلمة صدود في قوله تعالى «وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا» وذكرت كلمة الصدّ . ولم تذكر الكلمة الأولى من أجل الفاصلة، ولا الثانية من أجل الخفة، وإنما لكل معنى «فالأولى يقصد بها الاعراض، والثانية يقصد بها المنع» .

وكذلك كلمة لب، لم تذكر في كتاب الله تعالى، لا من أجل ثقلها فحسب، إنما من أجل أمر آخر. وكذلك كلمة يوعون، في قوله تعالى «والله أعلم بما يوعون» تعطي من الدلالة مالا تعطيه كلمة يعون، لذلك لسنا مع الفراء، حينما جعل الكلمتين سواء في مدلولهما عند تفسير هذه الآية الكريمة من سورة الانشقاق .

ذلك هو المنهج الذي نحاول اتباعه في دراسة المفردات القرآنية .

ومن الله العون، وعليه التكلان، وله الحمد في الأولى والآخرة، وآخر دعوانا ان الحمد رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

- المراجع -

- (١) ابن الاثير : نصر الله بن محمد - المثل السائر - طبعة البابي الحلبي .
- (٢) الاصفهاني : ابو القاسم حسين بن محمد الراغب الاصفهاني - المفردات في غريب القرآن ، تحقيق محمد سيد كيلاني ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي سنة ١٣٨١هـ - ١٩٦١م .
- (٣) الالوسي : محمد بن عبد الله الحسيني - روح المعاني .
- (٤) البخاري : محمد بن اسماعيل البخاري - الجامع الصحيح - مطبوعات محمد علي صبيح وأولاده / القاهرة .
- (٥) البيومي : محمد رجب البيومي - البيان القرآني - السنة الثالثة سنة ١٣٩١هـ - ١٩٧١م ، خطوات التفسير البياني للقرآن السنة الثالثة ١٣٩١هـ - ١٩٧١م .
- (٦) الجاحظ : عمرو بن بحر ، البيان والتبين - طبعة هارون . الحيوان طبعة هارون .
- (٧) الجرجاني : عبد القاهر بن عبد الرحمن - دلائل الاعجاز ، تحقيق السيد محمد رشيد رضا ، الطبعة الخامسة / دار المنار / مصر سنة ١٩٧٢هـ
- (٨) الخفاجي : عبدالله بن محمد بن سعيد بن سنان - سر الفصاحة - طبعة الخانجي سنة ١٩٣٢م
- (٩) الرفاعي : مصطفى صادق - اعجاز القرآن والبلاغة النبوية - دار الكتاب العربي بيروت سنة ١٣٥٣هـ - ١٩٧٣م .
- (١٠) الزركلي : خير الدين الزركلي - الاعلام قاموس راجم - دار العلم للملايين بيروت ، الطبعة الرابعة سنة ١٩٧٩م
- (١١) الزمخشري : محمود بن عمر بن محمد - الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الاقاويل في وجوه التأويل ، الطبعة الاولى - مطبعة الاستقامة القاهرة سنة ١٣٦٥هـ - ١٩٤٦م
- (١٢) أبو زهرة : الشيخ محمد أبو زهرة / المعجزة الكبرى للقرآن
- (١٣) الزيات : احمد حسن الزيات - دفاع عن البلاغة .

- (١٤) السيوطي : جلال الدين عبد الرحمن - الاتقان في علوم القرآن - الطبعة سنة ١٣٧٠هـ - ١٩٥١م ، طبعة البابي الحلبي .
- (١٥) بنت الشاطي : د . عائشة عبد الرحمن - الاعجاز البياني للقرآن ومسائل نافع بن الأزرق - دار المعارف / مصر .
- (١٦) العسكري : الحسن بن عبد الله بن سهل - الفروق الغوية - تحقيق حسام الدين القدسي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٠١هـ - ١٩٨١م .
- (١٧) كحاله : عمر رضا كحاله - معجم المؤلفين / مكتبة المتنبى بيروت ودار احياء التراث العربي / بيروت .
- (١٨) ابن ماجه : أبو عبد الله بن محمد بن يزيد القزويني - تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، طبعة البابي الحلبي وشركاه .
- (١٩) محمد : محمد فؤاد عبد الباقي - معجم غريب القرآن مستخرجاً من صحيح البخاري
- دار احياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي وشركاه الطبعة الثانية .
- (٢٠) مسلم : مسلم بن الحجاج - الجامع الصحيح .